المحاضرة الأولى

هويَّة الأمة العربيّة الإسلامية في مواجهة

التحدّي لعقيدتها وقيمها

الأستاذ الدكتور عدنان محمد زرزور

كلية الشريعة – جامعة قطر

السبت 16 شوال 1412هـ - 18 نيسان 1992م

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وبعد :

أبدأ أولاً بالملاحظات التالية:

الملاحظة الأولى: لا نذهب في تفسير "الهوية" الواردة في عنوان المحاضرة - بل في عنوان هذا الموسم الثقافي - إلى أكثر من كونها تعبيراً عن "ذاتية" هذه الأمة، أو "شخصيتها" المتجذرة عبر عصور التاريخ .

وهذه "الشخصية" بدورها أساسها ومنطلقها "الثقافة"، أو هي بعبارة أدق: صورتها التطبيقية المكافئة والمساوية.. تأسيساً على الفكرة القائلة: إن الثقافة تساوي الشخصية بوجه عام، ومع ملاحظة أن الحديث منصب على تحديات الثقافة الغربية لشخصية الأمة العربية الإسلامية - أي ثقافتنا - بوجه خاص.

وفي جميع الأحوال، فإننا نذهب في تعريف "الثقافة" - وعلى الرغم من تعريفاتها، أو مفاهيمها التي تعد عند الدارسين والباحثين بالعشرات - إلى هذا المفهوم العام والشامل، الذي يأتي لحُسن الحظ منسجماً مع عنوان هذا الموسم فيما أقدر. الثقافة عندنا هي المعارف التي تتعامل مع الإنسان، أو التي يكون "موضوعها" الإنسان باعتباره فرداً أو بوصفه عضواً في جماعة - ونميزها بذلك عن "العلم" التجريبي الذي يتعامل مع الكون أو الطبيعة، قال تعالى: (وَفي الأرْضِ آياتٌ لِلمُوقنِينَ، وَفي أنْفُسِكُمْ أفَلا تُبصِرُون)[1] وقال تعالى: (سَنُريهم آيَاتِنا في الآفَاق وَفي أنْفُسِهِم)[2].

ولهذا، فإن الثقافة في حقيقتها سلوك، أو هي نظرية في السلوك أكثر من كونها نظرية في المعرفة، كما يقول الأستاذ المفكر مالك بن نبي رحمه الله؛ بمعنى أنها وإن كانت من الوجهة النظرية "معارف" تدوّن وتُلقّن أو تتداولها الأجيال في سياق خفيّ وعميق ومعقّد - تلعب فيه اللغة أو

---

[1] الذاريات، 20-21

[2] فُصلت، 53

اللسان دوراً حاسماً- فإنها من الوجهة العملية مملوك وممارسة، لأنها ليست "شيئا"مفصولاً عن الإنسان، بل إن موضوعها هو الإنسان نفسه كما قلنا، ومن ثم فإن تعامله معها أو مع عناصرها المتشابكة والمعقدة سوف ينعكس على سلوكه، ويحدد له من ثَمَّ سمات "شخصيته". وهذا هو أساس الربط - الذي أشرنا إليه - بين "الثقافة والشخصية"،منجهة، وأساس التمييز - الذي تجب ملاحظته - بين أنوع "الشخصيات"التي تتوازعها ثقافات الأمم والشعوب... في خريطة ثقافية واضحة السمات، من جهة أخرى. ومن بينها، أو على رأسها: الشخصية الأوروبية، والثقافة الغربية، بطبيعة الحال.

الملاحظة الثانية:

إن التعبير عن هوية الأمة العربية الإسلامية في مواجهة تحديات الثقافة الغربية- أو بُعيد عصر الصدام مع الحضارة الأوروبية- أخذ شكلالاتجاه.. من خلال أن كثيراً من الشرائح المثقفة سقطت في امتحانالتحدي- وهي تظن غير ذلك بطبيعة الحال- فتنكَّبت ثقافتها،وأضاعت، أو كادت، معالم شخصيتها.. كما فعل الماركسيون وغلاة الفكر القومي والعلماني.. كما سأوضح بعد قليل.

وهكذا صار الحديث عن الإسلام أو عن الهوية الإسلامية حديثاً عناتجاه وسَطَ هذه الاتجاهات العلمانية أو الماركسية- المنقولة أو المستعارة من "الثقافة الغربية "- أو بعبارة أدق: من تاريخ المجتمعات الأوروبية؛بوصف هذا التاريخ- في مرحلة معينة أو في عصر النهضة- هو الذيأفرز هذه المذاهب والشعارات والمقولات.

وضاعف من خطورة هذه المسألة، وما يزال يضاعف حتى الآن، أن الذين تقدموا للتعبير عن هذه الهوية الإسلامية، وقع الكثير منهم- بخاصة في نطاق الدعوات التي غلب عليها الطابع الفئوي أو الحزبي، أوالتي وقع أصحابها في ردود الأفعال- إما في خطأ التصور، أو في خطأ

الممارسة. وفي الوقت الذي كرّسوا، بهذه الأخطاء ، مقولة: إن الإسلام اتجاه وليس بهوية! فإن أصحاب الاتجاهات الأخرى بالغوا، أو تعمدوا، في حل هذه الأخطاء على الإسلام أو على الهوية ذاتها! وليس على دعاته والمعبّرين عنها.. أو المنادين بضرورة إعادة صياغة الإسلام لحياة الجماعة مرة أخرى .

أولاً: لقد حان الوقت بعد هذه التجارب المريرة ، والهزائم المتلاحقة التي لحقت بالأمة العربية الإسلامية، وما تزال تلحق بها حتى اليوم، وبعد هذه التراجعات الحادّة التي تمت في محيط الثقافة الغربية نفسها.. أن يعود التعبير عن هذه الهوية مطلباً قومياً ينتظم جميع فئات الأمة، وجميع شرائحها.. على اختلاف مشاربهم، ومناحي تفكيرهم.. بل على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وأعراقهم؛ بوصف الثقافة العربية الإسلامية... أو بوصف الإسلام يمثل المشروعية العليا - كما يقال بلغة القانون- في حياة العرب والمسلمين أجمعين.. الذي لا يمكن لهذه الأمة أن تتجمع صفوفها، وتتوحد كلمتها على غيره، أو في غير رحابه مرة أخرى.

وما لم نصل إلى الاتفاق على سمات هذا المشروع الحضاري العربي الإسلامي.. سبيلاً للوحدة والنهضة والتقدم؛ فإن عصوراً قادمة من الذل والهوان سوف تنتظرنا لا قدّر الله!

الملاحظة الثالثة:

إنني سوف أتناول في هذه المحاضرة بشيء من التفصيل: تحدي الثقافة الغربية للعقيدة الإسلامية، أو للعقيدة والفكر الإسلامي. أما تحدي هذه الثقافة لقيم الأمة التي عُطفت في عنوان هذه المحاضرة على العقيدة - فإنْ أريد بها القيم الكبرى التي شكلت روح الحضارة العربية الإسلامية.. أو مبرراتها التي دارت عليها عجلتها في التاريخ؛ فإنها- أي هذه القيم،

كالمساواة، والعدل، والحرية - يمكن أن تسلك ضمن التحدي الثقافي بمعناه العام أو الشامل.. تأسيساً أو انطلاقاً من الفروق بين الثقافتين العربية والأوروبية أو بين الحضارتين العربية الإسلامية، والأوروبية المسيحية.

وإن أريد بهذه القيم: القيم الأخلاقية المؤسسة على فكرة الخير والشر، والحسن والقبح.. أو المنطلقة من قاعدة الحلال والحرام.. كالصدق، والشجاعة، والكرم.. والعفة والحجاب وبرّ الوالدين...وسائر الروابط الأخلاقية للأسرة على سبيل المثال؛ فإنني أكتفي بالإشارة إلى هذه القيم في هذه الملاحظة فأقول: إن هذه القيم يمكن إضافتها حقيقةً إلى العقيدة أو إلحاقها به ا.. على أساس الثبات الذي تتمتع به مع أحكام العقيدة ومسلّماتها التي جاءت في الكتاب والسنّة. وربما كذلك على أساس الروابط القوية التي تشد هذه القيم إلى العقيدة .

وقد نفعل ذلك طلباً للاختصار على أقل تقدير إذا قيل إن هذه القيم لا تتمتع بمزية إضافية في كلا هذين الأساسين أو السببين السابقين على سائر عناصر الثقافة الإسلامية أو مكوناتها.

إن التحدي الذي قام في وجه هذه القيم من قبل الثقافة الغربية ، وبخاصة في حقول الأخلاق والتربية والاجتماع، جاء من خلال (الروح العمانية) بوجه عام، ومن خلال (فكرة التطور) التي حكمت أكثر من حقل من حقول الثقافة والعلم جميعاً.. بوجه خاص.

وغني عن البيان أن هذه الفكرة ارتبطت بالنزعة المادية ، أو بالانطلاق في دراسة الإنسان والمجتمع من خلال (الواقع) -أو كما تدرس الطبيعة- الأمر الذي مهّد لسقوط فكرة الجانب المعياري في الأخلاق والاجتماع، أو في النسق القيمي بوجه عام، الذي أفضى في نهاية المطاف إلى القول بنسبية الأخلاق العُرفي، وإلى التشكيك في ثبات الفضائل وإلى إنكار وجود علم الأخلاق النظري.. وإلى الحديث عما هو كائن.. لا عما يجب أن يكون.. إلخ.

ويمكننا اليوم ملاحظة أثر هذا السقوط أو الإنكار في أبرز مشكلاتالعالم ا لمعاصر ، وأعني بها المخدرات أولاً، ثم الأمراض الناتجة عنالانحلال.. التي نعتقد به ذه المناسبة أن علاجها يجب أن يلتمس أول ما يلتمس في إعادة النظر بهذا النمط الثقافي السائد، وما أشاعه م ن تلكالمفاهيم... وسائر المفاهيم الأخرى، كالكبت، والحرية، وصناديقالانتخاب، وحق التشريع.. إلخ.

الملاحظة الرابعة والأخيرة:

إن التحدي الذي قام في وجه هوية الأمة في جانبها العق دي - بوصفهذه الهوية تعبيراً عن ذاتية الأمة، أو عن شخصيتها المتجذرة عبر عصور التاريخ، كما أشرنا في الملاحظة الأول- يوحي لنا بضرورة التفريق بينالعقيدة التي تشكل ضمير الأمة ، والعقيدة التراثية التي انحدرت إلينا منعصور الخلاف المذهبي ، والتي ما نزال ندرسها أو ن دّرسها في المعاهدوالجامعات! لقد قام التحدي الحقيقي في وجه العقيدة / الهوية التي تعيشهاالأمة ، والتي تشكل ضميرها وروحها،وتسري في كيانها.. والتي تعتمدعليها وتنطلق منها في حياتها اليومية أو في ح ركة ه ذه الحياة. أما العقي دةالتراثية ، أو تلك التي خل فتها المسلمون في عصر سابق.. وأعني بها عقيدةالمرجئة والخوارج، والأشاعرة والمعتزلة! أو عقيدة الأسماء والصفات، والجبر والاختيار.. والرؤية وخلق القرآن.. والتي يمكن أن نسمّيها أونطلق عليها الفكر العقا ئدي الذي ورثناه عن الأسلاف، فليست هيالمقصودة في هذا السياق ، لأنها كانت خارج معركة التح دي إلى حدكبير، وربما كان لها دور سلبي في بعض الأحيان.

وفي جميع الأحوال فإن من واجبنا تسليط الضوء على التحدي الأول،تحدي العقيدة / الهوية.. أو العقيدة التي تشكل أبرز ملامح هذه الهويةعلى الإطلاق.

نخلص من ثم إلى الحديث عن هذه التحديات التي قامت في وجه هذه العقيدة، والتي يمكن تصنيفها في عدة أنواع، مؤثرين الحديث عن التصنيف القائم على المباشر وغير المباشر.

أولاً: التحديات المباشرة:

١. المذاهب المناقضة للتصور الإسلامي عن الكون والحياة والإنسان بوجه عام، والمتمثلة في المذهب المادي المعاصر (الماركسية) والمذاهب الوجودية -على الجملة- وسائر الفلسفات التي ناقضت العقيدة الإسلامية أو الإيمان - في طرفيها أو ركنيها الرئيسيين: الإيمان بالله واليوم الآخر. أو العلة الأول والغاية الأخيرة -بغض النظر عن الأسماء والمصطلحات، أو التي حاولت أن تعطي تفسيراً لنشأة الكون وظهور الإنسان على نحو يناقض فكرة الخلق والإيجاد منعدم أو يُفضي إلى الإلحاد!

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن (المعاصرة) التي توصف بها هذه المذاهب ملك للحضارة التي أفرزتها.. والتي أعطت للمعاصرة بوجه عام، أو للعالم المعاصر سماته الراهنة.. فإن هذه المذاهب مثلت في الحقيقة تحدياً خارجياً أيضاً! الأمر الذي نستطيع معه أن نذهب إلى القول: إن الشريحة من المثقفين من أبناء العروبة والإسلام التي طلبت هذه المذاهب، أو تبنتها.. أو تأثرت بها منهجاً وقوالب تفكير وطرائقه، في بعض الأحيان، أو نتائج وأحكاماً في أحيان أخرى.. إنما كانت تطلب الحداثة والمعاصرة بالولاء والتبعية، أو المحاكاة والتقليد!

والمشكلة هنا هي أن هذه المذاهب المتناقضة بوصفها جزءاً من الثقافة الأوروبية.. وُلدت من خلال التفاعلات الاجتماعية وظروف البيئة والنشأة في عصر معين في تاريخ المجتمع الأوروبي، وقد تم نقل هذه المذاهب أولاً عبر الترجمة والتأثر المباشر، ثم عبر الإسقاط على التاريخ

العربي الإسلامي، والثقافة العربية الإسلامية بحثاً عن أسانيد أو شواهد لهذه المذاهب والآراء! أو استنباتاً لها في تربة الثقافة والفكر الإسلامي .وفي كلتا الحالتين لم ترْقَ إلى درجة القبول لدى عامة المثقفين، فضلاً عن محيط الأمّة وهويتها العقائدية! فبقيت معزولة أو مقصورة على فئة قليلة من المثقفين! كما بقيت الفلسفة اليونانية والفكر اليونان مقصوراً على عدد قليل من الفلاسفة والمفكرين في عصر سابق! علما بأن الترجمة الأولى هذه؛ أو التي تمت في عصور المجتمع الإسلامى الأول، لم تشكل تحدياً على هذا النحو، لأسباب كثيرة، من أبرزها أن هذه الترجمة تمت في ظل مناخ السيادة و(التوظيف) أي سيادة الحضارة الإسلامية، وتوظيف الفلسفة أو المنطق للدفاع عن الإسلام وشرح حقائقه وثوابته. بالإضافة إلى أن الأجداد تعاملوا مع مكتبات ومتاحف! فالتراث اليوناني في جملته لم تكن تمثله في ذلك الوقت حضارة قائمة.. فضلاً عن أن تكون غالبة أو سائدة! أو ترقى إلى مستوى الحضارة العربية الإسلامية على أقل تقدير. في حين أن الدعوة إلى المذاهب المعاصرة اليوم تمت في مناخ (التوظيف) والرغبة في الانتقال.. بل وصل الأمر بالماركسيين في وقت سابق إلى درجة الارتهان الثقافي.. بل إلى ما هو أبعد من ذلك في بعض الأحيان. وقد ساعد موقع الغرب المتقدم، وصنعه للحضارة الراهنة على الدعوة لهذه المذاهب تحت عنوان المعاصرة واللحاق بركب الشعوب المتحضرة كما قيلت! ولم يكتشف الماركسيون -وربما إلى وقت متأخر- أنهم كانوا يحطبون بحبل الآخرين! وأنهم خارج نطاق التاريخ! حتى لفظهم التاريخ!

والنقطة التي نشير إليها في هذا السياق: مدى التحدي الذي أصاب الهوية العقائدية، أو هوية الأمة في هذا الجانب! فقد بدا للناظر في ظل الأنظمة التي تبنت الفكر الاشتراكي أو العقيدة الماركسية - بصورة من

الصور- والتي تمكنت من قيادة بعض المجتمعات العربية في غياب الحرية والديمقراطية، أو من خلال إزهاق روح الحرية والديمقراطية والشورى.. لقد بدا للناظر أن هذه الهوية معرّضة لخطر التحوير والتبديل، ولكن الذي نراه أن الضرر الذي لحق بهذه الهوية لا يكاد يذكر! لأن تحدي العقيدة الماركسية السافر والمباشر حاصرها وقلّل من خطورة آثارها.. بالإضافة إلى السخف الذي انحدر إليه الماركسيون، والمناقضة الحادّة التي وقعوا فيها في مسألة الإنكار والإلحاد، نظراً لمناقضة الإلحاد للفطرة الإنسانية السَّويَّة.. فضلاً عن الفطرة التي وجدت تلبية لنوازعها في رحاب العقيدة الإسلامية على وجه الخصوص. الأمر الذي جعل من العقيدة الماركسية والفكر الماركسي شذوذاً أو حالة شاذة في العالم العربي والإسلامي.

وأياً ما قيل بشأن سلبيات الثقافة التي واكبت المجتمعات الإسلامية أو انحدرت إليها من عصر الركود، وأيا ما قيل كذلك بشأن الأوضاع الاجتماعية والسياسية السائدة في هذه المجتمعات؛ والتي تم توظيفها أو استغلالها في الدعوة إلى الماركسية وسواها من العقائد والفلسفات.. فإن الأمر ما كان له أن يصل إلى حد العدوان على الهوية، أو القدرة على تحويرها أو تشويهها! بل لم يحصل ذلك - في أي مرحلة- على الرغم من الحاجة السياسية للاتحاد السوفيتي - وما صاحبها من قبل الماركسيين من سوء استغلال وتوظيف - وعلى الرغم من تصوير التأييد والنصرة، وربما الحل للقضية الفلسطينية بكل تأثيرها وثقلها في النفوس والعقول، من خلال حركة اليسار الأوروبي والإسرائيلي.. أو الاشتراكية الدولية.. أو وجودية سارتر.. إلخ..

وليس من واجبنا هنا أن نفصّل القول في هذه النقاط وسواها من نقاط التأثير.. لأن الذي يعنينا تأكيده هنا: سقوط هذا التحدي، العقدي أمام

العقيدة الإسلامية الهوية، وبيان أسباب هذا السقوط، وتأتي الإشارة إلى حجم هذا التحدي، وإلى ظروف نجاحه المساعدة (سياسياً ونفسياً واجتماعياً وحضارياً وثقافياً..)، في سياق الحديث عن مدى الفرصة التي انفسحت أمامه ليصيب نجاحاً أو طرفاً من النجاح. وجملة ما نراه في هذه النقطة - بكل ملابساتها المعقدة أن الأمة لو جاز لها أن تتنازل عن هويتها العقائدية - أو لو قدر لها أن تفعل ذلك في موقف أو زمان! لكان زماننا الذي أشرت إليه أولى الأزمنة بذلك.

أما أسباب هذا السقوط، أو بعبارة أخرى: أما أسباب نجاح الهوية العقائدية أمام هذا التحدي، فأركز منها على سببين، يتصل أولهما بالعقيدة الإسلامية، ويتصل ثانيهما بالعقيدة الماركسية.

السبب الأول:

قوة الصمود التي تمتعت بها العقيدة الإسلامية في عصور الانحسار والانكسار التي مرت بها الأمة الإسلامية في جميع مراحل التاريخ. وقد عزا الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله قوة الصمود إلى صفة الشمول، التي توصف بها هذه العقيدة، كما عزا إليها - في الوقت نفسه - قوة الغلبة التي تمتعت بما في عصور الفتح وسرعة الانتشار.

والذي نراه أن حديث الأستاذ العقاد رحمه الله عن هذه العقيدة الصامدة التي اعتصمت بها الأمة في الشدائد، منصب على عقيدة القرآن، أو العقيدة التي تطالعها الأمة في كتابها الخالد.. والتي لم تنفصل عن ضميرها في يوم من الأيام. ويكفي عندنا في بيان حيوية هذه العقيدة، وأثرها الفاعل الذي يقطع أن نشير فقط إلى الإيمان بأسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العُلى.. بوصف هذه الأسماء والصفات تمثل فحوى العقيدة الإسلامية، لأنها تنطوي على حقيقة الإيمان بالله - الركن الأعظم للإيمان والاعتقاد - وعلى مضمون الصلة بين الإنسان وبين الله سبحانه

وتعالى. وغني عن البيان أن هذه الصلة الفاعلة المؤثرة هي مناطالاعتصام ا لسابق.. لأن الله تعالى هو الملك، المهيمن، العزيز، الجبار،المتكبر. ولأنه سبحانه هو الوهّاب، الرزا ق، الفتاح، العليم، القابض،الباسط ، الخافض ، الرافع، المعزّ ، المذلّ ، ولأنه جلّ شأنه هو السميعالبصير ، المحي المميت..

ولو أن المسلمين في هذا العصر، وفي سائر عصور انحسارهم، لميتجاوزوا في فهم هذه الأسماء والصفات والتعامل معها، أقرب المعاني لكان ذلك كفيلاً بإبقاء جذوة الإيمان حيّة.. من جهة وقادرة على منازلةعقيدة الإنكار، وسائر العقائد المناقضة، والتعفية على آثارها.. من جهة أخرى.

والعجيب في هذه النقطة، أو اللافت للنظر حقاً: أن تنتكسُّبالمتكلمّين، أو أصحاب الفكر العقائدي المشار إليهم، لهذه العلاقة المؤثرةبأسماء الله تعالى والصلة بها.. لم ينجح في قطع هذه العلاقة أو لم تؤثر سلباً على أقل تقدير. وذلك لسببين: الأول أن ج مهور المسلمين كان يعقلهذه الصفات عن القرآن الكريم لا عن المتكلمين! وهذا يعني العو دةبمعادلة هذه العلاقة إل ى وضعها الصحيح .. أي المتمثل بعلاقة المسلمبهذه الصفات وما يوجبه عليه الإيمانبها .. أو كيف يكون مؤمناً بأن اللههو الرازق، والرقيب، والنافع؛ والمعزّ، والمجيب.. إلخ لا في حدو دالقلب واللسان، ولكن في ساحة العمل والابتلاء، وفي حركة الحياة التيشملتها هذه الأسماء والصفات جميعاً ومن غير استثناء! في حين أن المعادلةالتي شغلت المتكلمين كانت تدور حول علاقة الصفات بالذات، أو
الذات بالصفات!!

السبب الثاني: أن المتكلمين أنفسهم، حتى ولو كان بعض المسلمين ما زالوا يجادلون عن عقيدتهم من خلال مدارس علم الكلام القديمة..

وعلى الرغم من أن دراساتهم -أي المتكلمين- أحالت هذه العقيدة الحيةالفاعلة ، وتلك العلاقة السلوكية بأسماء الله تعالى الحسنى، والصلة بها جدلاً عقيماً.. فإنهم جميعاً أرجعوا علاقة المسلم بأسمائه تعالى الثلاثة:الرازق ، المحيي ، المميت، إلى وضعها الصحيح.. من خلال إجماعهم -على اختلاف مناهجهم- على أن الأرزاق والآجال بيد الله تعالى وحده!

ولقد كانت هذه العلاقة الإيجابية بهذه الأسماء الثلاثة كافية لصمود المسلمين ، ولاعتصامهم بعقيدتهم. بل كانت كافية لبذل المال والنفس، أوللجهاد بالنفس والمال.. وصولاً أو طلباً للحياة الفضلى.. فضلاً عن أنالفقر والظلم الذي وقعوا فيه أو لحق بهم لم يشكل عندهم ذلك المناخالمناسب أو الكافي لقبول الفكر الماركسي.. كما شكل عنه غيرهم علىسبيل المثال.

والذي يؤكد عندنا بقاء هذه العقيدة القرآنية حيّة فاعلة.. إن المسلميناليوم على اختلاف أقطارهم باتوا يطلبون مستلزمات هذه العقيدة وتوابعهابعد رحلة الاغتراب والتغريب الطويلة خلال ما يزيد على مئة عام!وأعني بهذه المستلزمات والتوابع: الشريعة ونظام الحياة.. أو سائر عناصر الثقافة الإسلامية ومكوناتها من اقتصاد وتربية وأخلاق، واجتماع،وفنون.. إلخ بوصف هذه العناصر جرى فصلها أو العدوان عليها إلى حد كبير من خلال الفكر العلماني، أو التأثير العلماني.. وبوصف هذهالعناصر أو المكونات مؤسسة على العقيدة ومنطلقة منها ، أو بوصف هذهالعقيدة تمثل قاعدة الثقافة الإسلامية. وقد لا يكون استدعاء هذه العناصراليوم قد بلغ مداه -على الرغم من أن التغريب بات يفرض على المسلمينبقوة السلاح مرة أخرى- ولكنه بالغهُ بكل تأكيد.. وعقيدةُ المسلم تهيببه أو تنهض به إلى التخلص من الفصام والتناقض بين العقيدة ونظامالحياة.

هذه خلاصة عن السبب الأول المتصل بالعقيدة الإسلامية من أسباب نجاح الهوية العقائدية للأمة العربية الإسلامية أمام التحدي العقدي الماركسي.

أما السبب الثاني:

وهو متصل بالعقيدة الماركسية ذاتها - فيما وراء شذوذ الإلحاد ومناقضته للفطرة الإنسانية كما قلنا- فيعود إلى أن الماركسية كانت قد بدأت بالانحسار منذ زمن بعيد.. وقبل أن يتم تزيينها لأبناء الأمة العربية الإسلامية بوقت طويل. إن السقوط الأخير للماركسية كان سقوطاً للنظام! أما الفكرة فإن انحسارها بدأ بُعيد عرضها على التطبيق! بل إن بقاء الدولة أو النظام، كما عبرتُ عن ذلك في بحث نشرته في عام 1980، كان مرهوناً بمدى التراجع عن المذهب أو الفكرة لا بمقدار التطبيق! وقلت: إنه لا ينبغي أن يؤخذ من قيام الدولة أو النظام دليل على (صلاحية) الفكرة! بل على العكس.. وأعجب لعقيدة ينجح النظام الذي يمثلها في البقاء والاستمرار بمقدار تخلّيه أو تراجعه عن هذه العقيدة لا بمقدار تطبيقه ا! وقارن هذا بعقيدة الإسلام ونظام الإسلام لتعلم مدى سقوط تحدي العقيدة الماركسية والفكر الماركسي للعقيدة الإسلامية والفكر الإسلامي!

فإذا أضفنا إلى هذه الملاحظة، ملاحظتنا الأخرى القائلة إن هذا التراجع كان يتم لصالح الأوضاع السائدة في روسيا وأقاليم الاتحاد السوفييتي قبل أن يتمكن من قيادته الماركسيون - وأعني الأوضاع الاجتماعية والميراث الثقافي على وجه العموم- استطعنا أن نفسر انتعاش العقيدة الأرثوذكسية اليوم في روسية.. وبروز سائر السمات التي تؤهل المجتمع الروسي لأن يجد نفسه في سياق سائر المجتمعات الأوروبية الأخرى: ديناً وسياسة واقتصاداً.. مرة أخرى. قلنا في بحثنا: العالم

المعاصر: مدخل إلى الحضارة البديل: بعد أن علّلنا مطولاً رفضنا لفكرةالعالم الثالث ،انطلاقاً من ملاحظتنا لوحدة الشخصية الأوروبية والحضارةالأوروبية ، قلنا: (وحين يتفكك النظام الاشتراكي أو تنحل الفكرةالماركسية أو تتحلل! فإن أمراً ليس بذي بال سوف يقع في المجتمعالأوروبي أو الحضارة الأوروبية، لأن انتماء (المجتمعات الاشتراكيةالأوروبية) - إن صح التعبير- إلى هذه الحضارة لن يمسّ.. بل سيعادتأكيده مرة أخرى..)، ص 75.

وقد نفهم من هذا سقوط العقيدة الماركسية في تحديها للعقيدة الدينيةالمسيحية - مع تأكيد الدور الذي قامت به المؤسسة الكنسية في هذاالسقوط، ولو على صعيد الدولة والنظام- على الرغم من أنها ربما جاءتمبررة أو مفهومة بعض الشيء في سياق الشخصية الأوروبية المسيحية،وأوضاع المجتمع الأوروبي التاريخية، وعلاقته بالكنيسة ، وميراثه الثقافيوعلى الرغم من بعض الأمور الأخرى. وهذا يعني أو يذكّر مرة أخربسقوطها الأشد في تحديها للعقيدة الإسلامية ، ومناقضتها للإسلام؟ الأمرالذي يجب أن يقطع - اليوم- أي تعلّق غبي، كما يستحق أن يوصف ،لعربيّ أو مسلم بهذه العقيدة.

2 - أما التحدّي المباشر الثاني الذي قام في وجه العقيدة الإسلامية فقدتمثل باستدعاء التأويلات الفاسدة، والمذاهب المنحرفة التي خرجتبالعقيدة الإسلامية عبر عصور التاريخ عن فحواها، أو حاولتتفريغها من هذا المحتوى. وقد قام بهذا الاستدعاء الماركسيونوبعض أصحاب الفكر المترجم أو المنقول، في الأعم الأغلب؛ التماساً لبعض الأسانيد - من واقع تاريخ المسلمين - لهذا الفكر.. أوتأكيداً لبعض مقولاته وتفسيراته. كما قام بهذا الاستدعاء، أو البعثوالإحياء - في أحوال قليلة - بعض الباحثين الذين كان لهم هوى فيهذا التحدي، أو في هذا التشويه العقائدي، إنْ صح التعبير ، سواء

أكان لهم انتماء تاريخي لبعض الفرق التي تبنت هذه التأويلات في التاريخ، أم لم يكن [1]. ويبدو أنهم فعلوا ذلك رغبة في تقليص دور العقيدة الدينية ، أو للتشكيك في صلاحية الدين - بهذه التناقضات والمفهوم المتعارض - ليكون أساساً للنهضة مرة أخرى[2].. الأمر الذي يمهد للدعوة إلى العلمانية، أو يصب فيها في نهاية المطاف.

وربما كان الباعث على هذا ، من الأصل ، الرغبة في التبشير بالفكر الأوروبي، أو الانتقال بالمجتمعات العربية الإسلامية إلى أحضانه ومدارسه المختلفة! نظراً لعدم قدرة هذه التأويلات على الصمود أمام العقائد والفلسفات المعاصرة بوجه عام، وأمام العقيدة الإسلامية القرآنية بوجه خاص.

وعلى الرغم من أن أثر هذا التحدي، الذي يمكن عدّه تحدياً داخلياً، كان محدوداً إذا ما قيس بالتحدي السابق، وخصوصاً بُعيد عصر الصدام مع الغرب - ولكنه قد لا يكون كذلك بعد إفلاس المذاهب الأوروبية السابقة، بدءاً من انحسار الفكر الوجودي في وقت مبكر، وانتهاءً بالسقوط الاشتراكي الأخير - فإن هذا التحدي قد يجري تأكيده أو التركيز عليه مرة أخرى وإن كان سقوطه في جميع الأحوال لا يحتاج إلى تأكيد، خصوصاً إذا ذكرنا هزيمته السابقة من جهة، وعدم قدرته على الصمود أمام انتشار المعرفة والثقافة وشيوع النزعة العقلية والعلمية..

---

(1) انظر: على سبيل المثال أعمال عارف تامر، التي حاول فيها نفخ الروح في المذاهب الباطنية. وانظر: بوجه خاص مقدمته لكتاب (أساس التأويل) التي تحدث فيها عن نظرية التأويل عند معاشر الإسماعيليين، التي جاء فيها بكل عجيب وغريب!

(2) أو لنفي أن تكون العقيدة الإسلامية هي هذه التي يدعو إليها المصلحون من خلال الكتاب والسنة، وبقواعد اللغة والعقل، بل يمكن أن توصف بها كذلك (عقائد) بعض الفرق الغالية السابقة، التي ينتظمها السلك الباطني، أو القول بالظاهر والباطن في تفسير القرآن الكريم.

إلى جانب الإلمام باللغة العربية وبشروط تفسير القرآن الكريم في هذاالعصر.. من جهة أخرى.

ثانياً: التحديات غير المباشرة:

أما التحديات غير المباشرة التي واجهت هوية الأمة في عقيدتهاوقيمها.. فنريد بها تلك التحديات التي لم تشكل مناقضة لمفردات هذهالعقيدة وأحكامها - بوجه عام- ولكنها أثرت على منزلة هذه العقيدةومكانتها في بناء الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية.. وذلك بتقليصدورها، أو محاصرة أثرها، أو بإزاحتها عن موقعها الذي تحتله في هويةالمجتمع العربي المسلم .

وغني عن البيان أن هذه الإزاحة أو هذه المحاصرة جاءت في ركاب.بعض الشعارات والمقولات، أو بعض المذاهب والفلسفات، لعل أبرزهاوأخطرها : القومية والعلمانية. وقد أفردنا الحديث عنهما في دراسة أخرى مستقلة ومعمّقة بعض الشيء! ونكتفي هنا بالإشارة إلى أبرز نقاطالتحدي الذي واجهته الهوية العقائدية من خلال الطرح القومي والتطورالعلماني.

1- التحدي القومي:

ونبادر إلى القول إن التحدي الذي واجهته العقيدة الإسلامية من خلال الفكر القومي، ما كان أن يقع في بعض الحالات لولا ملابسات النشأة المعروفةفي أواخر العهد العثماني.. وما صاحب هذه النشأة منردود فعل حملت عليها سياسة التتريك.. في الوقت الذي عملت فيهاالإرساليات والمدارس الأجنبية على تزيين عصر القوميات الأوروبي.. فيزمن التفوق الأوروبي والركود الإسلامي. وقد كان لولادة الفكرة القوميةعلى أيدي الأقليات الدينية في النطاق العثماني أسبابه العلمية التي لا تصلإلى حد المؤامرة أو لا تنطلق منها.. كما قلت في الجامعة الأردنية منذ ما

يقرب من عشرين عاماً خلت! ولكن الذي نضيفه الآن أن هذه الولادةتركت ظلالها على مسألة التحديات التينتحدث عنها!

وفي جميع الأحوال،فإن هذا التحدي - القومي- لم يقع في جميعالصور ، أو في جميع الحالات، أو من خلال كلّ الطروحات، ولكنه وقعفي حالتين بارزتين: الأولى: حين وصلت القومية عند بعض الغلاة إلى أنتكون عقيدة تغني عن سائر العقائد! أو ديناً يحل محل الدين ، بوصفهادين العصر! أو ديناً له كتابه، كما أن للمسلمين قرآنهم وللنصاربإنجيلهم.. قال بعضهم: (القومية بالنسبة إلينا نحن القوميين العرب دينٌ له جنته و ناره، ولكن في هذه الدنيا)، وقال آخرون: لا ينهض العربحتى تصبح القومية العربية أو المبدأ العربي ديناً يغارون عليه كما يغارالمسلمون علىالقرآن الكريم، والمسيحيون على إنجيل المسيح الرحيم)[1]

والحالة الثانية : حين قُرنت القومية، أو قُرنت بها مذاهب اجتماعيةوفكرية مناقضة للعقيدة الإسلامية، أو حين أعطيت القومية بعضمضامين هذه المذاهب، كالعلمانية والماركسية. ولطالما كثر الحديث عنالمضمون العلماني للحركة القومية، مرة.. وقرن بين النضال القومي والنضال الطبقي مرة أخرى.. وإن كان الحديث عن هذا النضال لا يعنيناأمره، ولكن الذي يعنينا في هذه العجالة ربط آخر.. هو الربط بينالقومية والاشتراكية.. أو بعبارة أدق: الربط بين الثقافة القوميةالاشتراكية.. حتى إن بعض الأحزاب القومية جعلت مماأسمته (الثقافة القومية الاشتراكية)،مقرراًعلمياًجامعياًعاماً أومشتركاً بين جميع الطلبة.. في الوقت الذي تدرّس جامعاتالوطن العربي: الثقافة الإسلامية، كما هو معلوم تعبيراً عن

---

(1) راجع كتاب: المجتمع الإسلامي المعاصر، للأستاذ محمد المبارك، ص 117، دارالفكر 1980.

هوية الأمة والمجتمع! أن الثقافة القومية الاشتراكية هذه باتت تشكل خروجاً عن هذه الهوية وتحدياً لها، لا تأكيداً لها أو تعبيراً عنها! وإن شئنا قلنا: إن هذه الثقافة الجديدة باتت تشكل الرغبة في مواصفات المجتمع العربي الذي ترغب هذه الأحزاب في بنائه! أو بعبارة أدق: في شرخه عن جسم الأمة العربية الإسلامية.. بوصف الإسلام يمثل المشروعية العليا في حياة العرب.. الذي لا يمكن للعرب أن يجدوا أنفسهم في غير رحابه مرة أخرى.. مهما طال البحث وكثرت الشعارات، وتعدّدت الولاءات والانتماءات.

ولا ندري على أي حال ما مصير العقيدة الإسلامية والفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية في هذا الطرح العجيب! أو في هذا الطرح الذي يتناقض مع مقومات القومية ذاتها إذا كانت الحلقة الثانية التي تلي الحلقة القومية عندهم هي الاشتراكية أو الحلقة الاشتراكية؟ أو إذا كانت الثقافة الاشتراكية أقرب إلى الثقافة القومية من الإسلام أو من الثقافة الإسلامية! وغني عن البيان أن هويتنا الثقافية: قومية إسلامية.. وأن هويتنا الحقيقية: عربية إسلامية. ومن ثَمَّ فإن أي ربط للعربية أو العروبة والقومية بغير الإسلام، أو أي طرح يتجاوز الإسلام إلى غيره من العقائد أو المذاهب أو الفلسفات أو النظم الاجتماعية يعدّ نقضاً للطرح القومي أو للفكرة القومية ذاتها، أو خروجاً عليها.. خصوصاً إذا ذكرنا (أن أسّ الأساس في تكوين الأمة وبناء القومية) -بحسب عبارة ساطع الحصري- اللغة والتاريخ..

وهذان العنصران أو الأساسان: اللغة العربية، والتاريخ العربي الإسلامي.. ليسا في نهاية المطاف أو في التحليل الأخير - كما أوضحنا في بحثنا المشار إليه- شيئاً مفصولاً عن العقيدة الإسلامية والثقافة الإسلامية.. أو عن الإسلام بوصفه عقيدة وشريعة ومنهج حياة!

وربما كان السبب في هذا الربط - المنكور- بين القومية والاشتراكية يعود إلى أن بعض الطروحات القومية التقت عند تفريغ القومية من محتواها الثقافي العربي الإسلامي.. مما مهّد لربطها بعجلة ثقافات أخرى منقولة أو منحولة! وربما ساعدهم على ذلك أن القومية في الأصل قضية وجود، أو مسألة انتماء! وقد يحق لنا عند هذه النقطة أن نلاحظ أن القومية - في هذه الحال- لم تكن أكثر من جسر عبرت عليه الماركسية!

واسمحوا لي أن أقول، مع شديد الأسف، إن هذه النتيجة ساهم في الوصول إليها بشكل من الأشكال الباحثون الذين عملوا على التقليل من أهمية ارتباط العروبة بالإسلام، أو الذين عملوا على إضفاء الطابع التاريخي على هذه الصفة.. أو الذين حاولوا جاهدين لجعل الإسلام نفسه صورة من صور العبقرية العربية، أو من نتاجها إلى حد كبير.. كما ساهم فيها كذلك بعض المؤرخين الذين حاولوا

تضخيم تاريخ الجاهليةالعربية على حساب التاريخ العربي الإسلامي، أو مع إبراز مدىالخلافات التي حصلت في تاريخ الإسلام.. أو الذين حاولوا أن يرتقوابسند القومية العربية إلى تاريخ الجاهلية... وأن يمروا به بعد ذلكبعض المحطات في التاريخ الإسلامي.. ولو وصل الأمر إلى وضع السلاجقة - مثلاً- الذين قاوموا الغزو الروماني والغزو الصليبي في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، مع الصليبيين في قائمة العدوانا لخروج على القومية العربية والأمة العربية . . ويالعجائب المفلوقات!

ويمكن أن نضيف إلى هاتين الحالتين البارزتين اللتين شكلتا فيهماالقومية تحدياً للهوية العقائدية سائر الحالات الأخرى التي أخلّ فيها الطرح القومي برابطة العقيدة، أو بأخوة الإيمان والاعتقادالتي عقدهاالله تعالى بين المسلمين جميعاً بقوله: (إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ).

2- التحدي العلماني:

أما العلمانية فقد فصلت في واقع حياة الأمة العربية الإسلامية، أو فيحياة المجتمعات العربية الإسلامية إلى حد كبير بين (العقيدة) و(نظامالحياة)، بغض النظرعن الفروق التي قامت بين هذه المجتمعات في فهمه اللعلمانية وتعاملها معها.. أو بغض النظر عن مدى الإعلان السياسي عنتبنيها وتطبيقها.

فإذا أضفنا إلى ذلك: الأثر الإيجابي للعلمانية على الصعيد الأوروبي فيالنهضة والتقدم العلمي.. ومدى حاجة مجتمعاتنا إلى تقدم مماثل..أدركنا مدى الخطورة في تحدي العلمانية لهويتنا العقائدية لأنها لا تمسّجوهر (العقيدة)، ولا تناقض أركان الإيمان، بل لا تعارض من حيثالأصل والنشأة حرية الاعتقاد من وجه، في الوقت الذي باتت فيهمطلباً-أو مخرجاً- عند كثير من المثقفين.. من وجه آخر! حتى تمعندهم الربط بينها وبين (التقدمية) في بعض العناوين أو الشعارات..فزعم من زعم أنه يمثل (الاتجاه التقدّمي العلماني)، وإن كان من الملاحظأن العلمانية مشت غالباً في ركاب الدعوة القومية أو الفكر القوميلأسباب لا مجال للحديث عنها الآن، وأن هذا الفكر شكل تحدياً لا منخلال العلمانية التي مشت في ركابه فحسب، بل من خلال بعضطروحاته الخاصة التي أشرنا إليها قبل قليل.

وعندما يعود المرء ليتفحص هذا التحدي العلماني القائم على الفصل ، أو القطع المذكور بين العقيدة ونظام الحياة، يجد أنه تحدٍّ ثقافي شامل وليس تحدياً عقدياً فحسب.. وعلى الرغم من أن الحديث في هذا التحدي الثقافي ليس موضوع بحثنا الآن ؛ فإنني أشير منه إلى نقطة جوهرية واحدة تبدو ضرورية لفهم هذا التحدي الشامل أو تفسير من وجه، وتمهد في الوقت نفسه للحديث عن صورة التحدي العلماني الخاص بالعقيدة الإسلامية وحدها فيما نقدر.

الثقافة الإسلامية بفروعها أو مكوّناتها المختلفة، من عقيدة وعبادة وشريعة وسياسة واقتصاد وتربية وأخلاق واجتماع.. أصولها ومنطلقاتها- وثوابتها - دينية جاءت في الكتاب الكريم ونطقت بها السنة المطهرة.وحين فهمنا من خلال الطرح العلماني، المنقول أو المستعار، أن (الدين)صلة روحية، وأن دائرته لا تتعدى البعد الفردي للإنسان ، أو لا تتعدى حياته الشخصية المتمثلة في علاقته مع ربّه سبحانه وتعالى.. فكأننا وضعنا في هذه الحال (العقيدة) محل (الدين) أو كأننا بعبارة أدق: قصرنا مفهوم (الدين الإسلامي)، أو الإسلام، وليس أي (دين) على(العقيدة) أو نزلنا بمفهوم الإسلام الشامل إلى العقيدة وحدها، على الرغم من أن العقيدة تمثل قاعدة الثقافة وأساسها المكين!

وهذا هو أساس أو منطلق الفصل السابق الذي نتحدث عنه بين(العقيدة) - أو الدين بهذا المفهوم الجديد- وبين سائر المكونات والعناصر الثقافية السابقة. فإذا تذكرنا أن الشخصية الإسلامية تقوم بالثقافة الإسلامية، أو تعد صورتها التطبيقية أو السلوكية المكافئة؛ علمنا كيف أن التحدي العلماني الثقافي أدّى في الواقع إلى تفريغ الشخصية الإسلامية من محتواها الثقافي؛ الأمر الذي مهّد لملئها بأقوى النماذج الثقافية القائمة في عالم اليوم، وهي الثقافة الأوروبية بفروعها المختلفة السابقة -من اقتصاد وإعلام وتربية وقانون.. إلخ- وهذا هو أساس التغرب أو التغريب الذي جاءت به الدعوة إلى العلمانية أو مشى في ركابها! ! بل نذهب في تعليل هذه الظاهرة أبعد من ذلك.. فنقول ، أو نضيف: إن هذا الملء جاء كذلك أو في الوقت نفسه، من خلال ارتباط هذا النموذج الثقافي نفسه بالعلمانية الأوروبية، التي تم نقلها أو التبشير بها . . أي كأننا طلبنا النموذج الثقافي الأوروبي ، أو دُفعنا في مناخه.. من حيث نظرته إلى(الدين)، ومن حيث نظرته إلى (الحياة) ، أو من حيث (منهاجه) في الحياة!

ونصل هنا إلى الحديث عن التحدي الذي قادته العلمانية في وجه العقيدة الإسلامية، أو وقعت فيه. وذلك من خلال النقطتين التاليتين:

الأولى: أن العلمانية نازعت الإسلام سلطانه الثقافي، وسلبت المسلمين حقهم في إقامة نظام حياتهم وفقاً للإسلام، بوصفه عقيدة وشريعة ومنهج حياة! وقد وقعت هذه المنازعة - كما أوضحنا - من خلال تعارض العلمانية مع الأصول الدينية للثقافة الإسلامية في مختلف فروعها، أو مع الفحوى الديني (الإسلامي) لهذه الفروع! وقد كان في وسعنا أن نضيف: بغض النظر عن موقفها - أي العلمانية - من قضية العقيدة والإيمان! لولا أن هذا الموقف بات في نهاية المطاف سلبياً .. بل بات يشكل تحدياً حقيقياً للهوية العقائدية، لأن هذه العقيدة لها مستلزماتها وتوابعها الثقافية - التي تجاهدت العلمانية لمحاربتها وإقصائها - وبقاء هذه العقيدة سليمة سوف يدفع بأبناء الأمة الإسلامية إلى استكمال نمط حياتهم وسلوكهم وفقاً لنظام الإسلام! الأمر الذي استتبع العدوان على العقيدة أو التشكيك فيها، أو التعفية على آثارها، من خلال جميع فلسفات التشكيك التي عرفتها الثقافة الأوروبية، أو عرفها الأوروبيون خلال الثورة العلمانية - إن صح التعبير - وقد أثبتت كل النماذج العلمانية التي فرضت على العالم الإسلامي هذه الحقيقة، فلم تكن (حيادية) حتى نحو العقيدة الشخصية أو الاعتقاد الفردي، والسلوك الشخصي عند المسلمين.

أما النقطة الثانية: فهي أن (فحوى) العلمانية، أو خلاصتها الحقيقية أو الأخيرة عند دعاتها من أبناء الأمة العربية الإسلامية، لا تعدو أن تكون في واقع الأمر إيقاعاً للمماثلة أو تحقيقاً للتشابه بين المجتمعات الإسلامية والأوروبية، أي تحقيق (صورة) التغريب الذي أشرنا إليه! ولهذا فإن المجتمعات الأوروبية قد تقبل وتقرّ من مسائل العقيدة الفردية والسلوك الشخصي ما لا يقرّه أو يقبل به العلمانيون المتغربون - والمغرّبون - في المجتمعات الإسلامية، فلا ضير على المرأة أن تلبس في أوروبة ما تشاء،

ولكن العلمانيين من المسلمين لا يقبلون منها بغير نزع الحجاب! أكتب هذا وبين يدي خبر في صحيفة يقول (إن المنشور رقم 108 الذي يمنع ارتداء الحجاب قد تعدّى العمل به الإدارات والمعاهد ليصل الأمر إلى تمزيق الحجاب في الشوارع من طرف مليشيات الحزب الحاكم) في بعض دول المغرب العربي! ولا يتسع المجال لأكثر من هذه الإشارة في هذا المقام.

وإذا نظرنا أخيراً في هذه التحديات غير المباشرة، القومية والعلمانية، لما صعب علينا ملاحظة أن المد الذي تمتعت به بعض الوقت أخذ بالانحسار عن هوية الأمة! أو للاحظنا مدى اطراد نجاح هذه الهوية في امتحان التحدي القاسي الذي تعرضت له، على الرغم من بعض المظاهر السلبية الصاخبة التي ما تزال تعزل وجه هذه الهوية..

- فالقومية لم تغن عن العقيدة، ولم تستطع أن تحل محل الدين.. على الرغم من تلك الصيحات التي تدعو إلى الإشفاق من هذا الجهل بالدين والقومية جميعاً! والتي ولدت ميتة في الواقع وحقيقة الأمر. ولا نبعد إذا قلنا إن القومية التي تبرأ من الزندقة والإلحاد لم ينجح بعضهم في اتخاذها سلّماً للزندقة والإلحاد يشوّه به هوية الأمة، ويسيء إلى قيمها! فضلاً عن أن القومية بطبيعتها، أو من حيث كونها وضعاً من أوضاع الخلق (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)[1] لا تشكل تحدياً لهذه الهوية. ولا تناقضها أو تتعارض معها! أما اقترانها بالمذاهب التي أشرنا إليها؛ فعلى الرغم من أن طبيعتها لا تستلزم مثل هذا الاقتران؛ فإن بعض هذه المذاهب، وأعني به الماركسية، قد سقط وخرج من نطاق التاريخ، فكراً ونظاماً، أو ديناً ودولة.. كما أشرنا في هذا البحث.

- أما العلمانية التي ما تزال الدعوة إليها قائمة تحت عناوين شتى، وبمعاذير وأسباب مختلفة داخلية وخارجية، وسياسية وثقافية.. فإن

---

(1) الحجرات، 13.

وجهها القبيح في العالم الإسلامي لم ينجح في إخفاء هوية الأمة أو فيالتعفية عليه ا.. على الرغم من هذه الفرصة الطويلة جداً التي أعطيتلها.. وما اكتنف الأمة خ لالها من الضعف والتمزق والاستلابالحضاري، وما وقع عليها وعانت منه من الاستبداد السيا سي والظلمالاجتماعي. وقد تمثل هذا الوجه القبيح للعلمانية، كما بسطنا فيه القول فيدراسة أخرى ، في التغريب والتغرّب ، وفي التجاوز والعدوان، وفيالطائفية وتكريس التخلف[1]! بل تمثل هذا الوجه باختصار شديد في كونالدولة الحديثة - القطرية أو الدكاكينية - التي مثلت العلمانية ودعت إليهاوالتي باتت تحمل عليها شعوب الأمة بسطوة الإرهاب، وقعت في (تناقض مع الدين الاجتماعي المكوّن للأمة والدولة)، أي الإسلام بوصفهالمؤسس للاجتماع السيا سي على حد تعبير الباحث الحصيف الأستاذبره ان غليون. يقول الدكتور غليون: (الدين - في الإسلام- هوالمؤسسللاجتماع السياسي.. بقد ر ما أصبح الاشتراك في العقيدة أساسهذا الاجتماع بدل الخضوع للدولة والمشاركة في عبادة السلطة) ويضيف:(إن انتقال الدولة الحديثة من أوروبة إل ى المجتمعات العربية الإسلاميةجع لها أداة استلاب جماعية، ورمزاً للروح القهرية والأجنبية بحيث نج دالدولة الحديثة في تناقض م ع الدين الاجتماعي المكوّن للأمة والدولة)[2].

(ا) انظركتابنا: القومية والعلمانية: مدخل علمي. مؤسسة الرسالة، بيروت 1992.

(2) نقد السياسة، الدين والدولة. برهان غليون. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت1991.

الندوة الأولى

هوية الأمة العربية الإسلامية في مواجهة
التحدي العلمي والتقنيات الحديثة

أدارها

الأستاذ الدكتور محمد أحمد حمدان، عضو المجمع

وشارك فيها:

الأستاذ الدكتور عبدالمجيد نصير، عضو المجمع

الأستاذ الدكتور همـــام غصيـب، عضو المجمع

السبت 23 شوال 1412 هـ 25 نيسان 1992 م

كلمة

الأستاذ الدكتور محمد أحمد حمدان

عضو المجمع

أيها الحفل الكريم.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فأرحّب بكم أجمل الترحيب وأحييكم أطيب تحية، وأسأل الله العلي القدير أن يوفقنا ويهدينا إلى العمل الجاد النافع المنتج لما فيه خير الأمة وصلاحها.

إن موضوع ندوتنا لهذا اليوم موضوع حيوي مهم لما له من أثر كبير على مستقبل الأجيال في هذه الأمة، ولعلي قبل أن أقدم إليكم الزميلين الفاضلين المتحدثين في هذه الندوة، أقدم للموضوع ببعض الملاحظات الموجزة:

١ - لقد اعتدنا عند بحث هذا الموضوع التركيز على عرض جوانب النقص وأسباب تخلف الأمة العربية الإسلامية عن مواكبة التطور العلمي والتقني في الدول المتقدمة، وكثيراً ما يتحول النقاش إلى تشخيص الداء في عدم توافر المناخ العلمي ، والتقني الملائم للإبداع والإنجاز بما في ذلك عدم كفاية الدعم المادي لنشاطات البحث العلمي والتطوير التقني.

٢ - وخلافاً لهذا المنحنى، فإنني أرى أنه قد آن الأوان لأن ننطلق من ظروفنا وإمكاناتنا الحالية للوصول إلى مقترحات عملية من أجل الإسهام الفعال في التقدم العلمي، والتقني والاستفادة منه في تيسير أمورنا المعيشية، مع المحافظة على هوية الأمة العربية الإسلامية، بل دعم الاعتزاز والافتخار بمنجزات علمائها وباحثيها. وفي اعتقادي أن هذا المنحنى يجنبنا ما اعتدنا عليه من جلد الذات ، ويترك المجال مفتوحاً للتفاؤل بالمستقبل العلمي والتقني لهذه الأمة.

٣ - وإن التقدم الهائل الذي يشهده عالمنا في حقل المعلوماتية والاتصالات يستدعي أن تعمل الأمة على الاستفادة من هذا التقدم بتوطين العلوم والتقنيات الحديثة في البلدان العربية الإسلامية، مع مراعاة تراثنا وقيمنا التربوية والأخلاقية والاجتماعية والصحية والنفسية

والبيئة. ولا شك أنه يقع على عاتق المؤسسات التربوية والإعلامية أن تلعب دوراً أساسياً ومهماً في سبيل تحقيق ذلك. وغني عن القول، فإنه على كل بلد من البلدان العربية والإسلامية أن يعمل على نقل العلوم والتقنيات الحديثة إلى لغته الأم ، لأن ذلك هو الأسلوب المنطقي الفعال الذي يؤدي إلى تيسير الفهم والاستيعاب الكامل، وبالتالي إلى إمكانية التميز والإبداع. كما أنه لمن الضروري أن يتم التنسيق والتعاون بين الدول العربية والإسلامية في جميع المجالات العلمية والتقنية.

4-وإن المؤسسات المعنية بالعلوم والتقنيات الحديثة عديدة في الدول العربية والإسلامية، إلا أن التنسيق والتعاون بين هذه المؤسسات ضعيف جداً إن لم يكن معدوماً. وأنه لأمر حيوي تنسيق جهود هذه المؤسسات لتبادل الإفادة من هذه الجهود ولتجنب الازدواجية والتكرار الذي يستنزف الجهود البشرية والمادية دون جدوى.

5-ويذكر على سبيل المثال لا الحصر، التعاون في إنشاء مراكز بحثية وتقنية متخصصة تهدف إلى تركيز جهود العلماء العرب والمسلمين في حقل محدد والسعي إلى التميز والإبداع في هذا الحقل. هذا بالإضافة إلى التعاون في مجال تبادل المعلومات العلمية ، وتبادل الزيارات بين العلماء والتقنيين ، وكذلك التعاون في نشر المجلات العلمية المتخصصة. كما يلزم التعاون في اقتناء واستعمال الأجهزة والتجهيزات والمواد المكتبية التي أصبحت تكلف مبالغ طائلة. كما أنه من الضروري أن يتم التنسيق والتعاون في إنشاء المشاريع الصناعية التقنية عالية الكلفة التي لا يمكن أن تكون مجدية اقتصادياً إلا إذا توافرت لها أسواق عربية وإسلامية واسعة.

6- وفي مجال إبراز دور الأمة العربية الإسلامية في التقدم العلمي والتقني، فإنه لا بد من تأكيد دور العلماء العرب والمسلمين الذين استقطبتهم الدول المتقدمة للعمل فيها.. وفي الواقع، يوجد في الدول الغربية علماء عرب ومسلمون أفذاذ يسهمون بشكل فعال في الإنجازات العلمية والتقنية لتلك الدول، وقد حصل بعضهم على أرفع مراتب التقدير والتكريم. ومع أن كثيراً من هؤلاء العلماء

يحملجنسية تلك الدول، إلا أنه لا يمكن إنكار فضل البلدان العربيةوالإسلامية التي أنبتتهم وتعهدت تربيتهم وتعليمهم في المراحلالأولية من حياتهم العلمية.

7- وفي سبيل تثبيت دور العلماء العرب والمسلمين الذين يعملون فيالغرب وتأكيده، لا بد من مد الجسور المتينة بين هؤلاء العلماءوالبلدان العربية والإسلامية ، التي يقع على عاتقها تسهيل عودةهؤلاء العلماء لمدة قصيرة أو طويلة للإسهام الفعال في توطين العلوموالتقنيات الحديثة، بل تدريب العلماء الشبان في الوطن على التطبيقالعلمي الفعال لأساليب هذه التقنيات ووسائطها. وإنه لمن الممكنمن خلال التخطيط السليم أن توضع خطة عمل وبرنامج زمني يحدددور العلماء المغتربين في الإسهام في برامج التنمية الوطنية.

8- وأعتقد أنه لمن الضروري أن نعمل على إبراز دور العلماء العربوالمسلمين بالشكل المناسب، وذلك بأن تتولى إحدى المؤسساتالعلمية العربية الإسلامية، حصر إنجازات العلماء العرب والمسلمينومتابعتها ، بهدف جمعها وإصدارها في نشرات دورية توزع في جميع أنحاء العالم، وبالتالي تصل إلى المؤسسات التربوية في العالمين العربيوالإسلامي ليطلع عليها الناشئة فتزيد من اعتزازهم بهويتهموتحفزهم على العمل الجاد من أجل التميز في مجال العلوم والتقنية .
وبعد ، فهذه بعض الأفكار حول موضوع ندوتنا لهذا اليوم ،تمهيداً لمساهمة كل من الزميلين الأستاذ الدكتور عبدالمجيد نصير، والأستاذالدكتور همام غصيب.

كلمة

الأستاذ الدكتور عبد المجيد نصير

عضو المجمع

مع تحول العالم إلى قرية واحدة،بفضل تطور وسائل الاتصال، تواجه كل أمة إشكالية التميز والذوبان. فلم تعدالحدود الجغرافية،ووسائل الأمن، وجوازات السفر، وتأشيرات الدخول مانعاًلدخولأخطر ما يؤثر في الإنسان، ألا وهو الأفكار والمعلومات وأساليب المدنية، وتقنيات الحضارة. وصارت الغلبة في هذه الميادين للأمم القوية في هذهالأدوات المتقدمة في تطورها، وتواجه الأمم الضعيفة أو المتخلفة مشكلةحقيقية، في أنها ستفقد هويتها، وتذوب شخصيتها، وتضيع في مجاهلالتاريخ.

وأمتنا العربية الإسلامية وهي في هبوط أحوالها، وضعف وسائلها، وتمزقها إلى دويلات وأنظمة، كُلٌّ فَرِح بمتعلقاته الصغيرة، تواجه هذاالتحدي، وهي غير مستعدة له. ومع ما تحمل لنا الأخبار من أن أعداءنافي الغرب وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية قد انتهجوا منعطفاً جديداً في التعامل معنا، بأن لا يتعاملوا معنا على أننا أمة واحدة، ذاتكيان راسخ في الوجدان، ممتد في المكان والزمان، بل على أساس أنناشعوب متناحرة ودول متعادية، فإن قضية التحدي لهوية الأمة العربيةصارت لها الأولوية في الأحاديث. وحري بأهل الحكمة والثقافة والرأيأن يدقوا الظنابيب فزعاً لهذه الداهية الدهياء، فهم كطبيب الإنعاش الذييصادفه مريض توقف قلبه. فليس له إلا مباشرة العمل بكل ما يستطيع،لأن الخيار الآخر هو الموت.

وقد أحسن مجمعنا هذا، مجمع اللغة العربية في بلد الرباط والحشد، إذجعل من هوية الأمة العربية الإسلامية محور موسمه الثقافي العاشر. ودعاالمحاضرين ليتناولوا هذا الوضع الخطير من زوايا متعددة. ويسعدني أن

أشارك زملائي في هذا الجهد في الحديث عن التحدي لهذه الأمة في ميدان العلم والتقنية.

وسأدير حديثي هذا على خمس فقرات:

١. هل بالإمكان تمييز هوية أي أمة من الوجهة العلمية والتقنية؟

أو كما يقال: هل العلم لا وطن له؟ ونعني بالعلم المعنى الضيق من المعارف مقابل كلمة (Science) والجواب هو أن العلم ،أصلاً ، لا وطن له ، لأنه يبحث في حقائق مجردة من الحضارة والمدنية المتعلقة بالأشخاص والمجتمعات. إلا أن واقع الحال يدلنا على وجود خيط رفيع فاصل للتمييز بين الأمم المتقدمة علمياً في هذا العصر. فللعلم نكهة يعتصرها من حضارة ذلك الشعب . واتجاهاته وفلسفته ومبادئه وقيمه. وبخاصة إذا أضفنا إلى العلم ما يسمى "أخلاقيات العلم". فنكهة العلم في اليابان هي خلافها في فرنسا أو الولايات المتحدة الأمريكية أو روسيا. ذلك أن الأمم حتى في هذا الميدان شبه المجرد تختلف في اهتماماتها، واختياراتها ، وتطبيقاتها، وتعاملها مع نتائج العلم.

فلا أتصور مثلاً، لو أن أمة الإسلام كانت سباقة إلى اختراع القنبلة الذرية أن تسارع إلى استعمالها كما فعلت الولايات المتحدة مع اليابان في آخر أيام الحرب العالمية الثانية. ولأن العلم في الإسلام عبادة، وليس
تسلية أو وسيلة تدميرية، أو علماً لأجل العلم، فإن اختيارات هذه الأمة ستختلف عن غيرها. وبخاصة، لأن العلم اليوم له تكلفة مرتفعة من المال والمواد والبشر. فالعلم لخدمة الإنسان والإسلام! لا لتدمير الإنسانية.وهو لتعميق الإيمان بالله، وليس لتحدي الطبيعة.

ولهذا، يمكن أن نقول إن أمتنا العربية الإسلامية مدعوة اليوم أكثر مما مضى قبل أن تذوب وتختفي في عالم التقدم العلمي، أن يكون لها كيانها العلمي المتميز، وهويتها الواضحة، منبثقاً ذلك من قيمها وأهدافها،

وإيمانها بالله، ورسالتها الإسلامية إلى الكون.

٢. واقع المواجهةالعلميّة:

يمكن أن نؤر خ لبدء المواجهة العلمية مع الغرب منذ حملة نابليونودخوله مصر سنة 1798. وعندما جاء بعده محمد على باشا حاكممصر، وكان طموحاً، وجد أن الحاكم القوي يحتاج إلى شعب متعلم ، منتج، صحيح الأجسام، ذي صناعات مستقلة. وهكذا فتح المدارسوالجامعات، وأنشأ كليات الطب والمستشفيات، وعمل المصانع. ومع أنهذا يعني أن المواجهة أثمرت إيجابياً قبل اليابان بأكثر من سبعين عاماً، إلا أن حالنا اليوم مقارنة مع حال اليابان هو مأساة. فنحن أمة متخلفة علمياً، ضعيفة مادياً، مستعمرة أرضاًوفكراً، متخاذلة عسكرياً، مجزأةإلى حد الانهيار، ضعيفةالعزائم إلى حد الخوَر.

ويلاحظ، بأسى، أنَّ أخذنا للآداب والإنسانيات وأسباب المدنية عنالغرب هو أضعاف ما نأخذ عنه من العلوم والتقنيات والمصانع. نعم إنفي الأمر مؤامرة، ولكننا نساع د في تنفيذها ، لتظل أمتنا سوقاً استهلاكية
غير منتجة، تعتمد على عدوها في أسباب حياتها.

وجامعاتنا،بدلاً من أن تكون انبثاقاًعضوياً من مجتمعاتها، تتفاعل معحاجاتها، وتعينها في حل مشكلاتها ، وتأخذ بأيديها إلى مستويات التقدم ، فإنها صارت وبالاً عليها. إذ صارت مؤسسات تفرخ التقليد للغرب، والانبهار بعلمه وحضارته. وفشلت في استنبات العلم والتقنية. وليسأدل على ذلك من أن نسبة إسهام العلماء العرب والمسلمين في الاختراعاتالعلمية، والتقدم التقني تكاد تكون صفراً. بل إن عالمنا العربيبجامعاته الم ئة، ومعاهده العلمية الكثيرة ، وملايينه المئتين، لا ينتج منالبحوث كمّاً إلا جزءاًمما تنتجه الجامعات السبع ، والمعاهد في الكيانالصهيوني.

ويمكن تلخيص هذه المشكلة فيما يلي :-

أ- المؤسسات العلمية خارجة عن المجتمع، ليست جزءاًعضوياً منهفي إنشائها وأهدافها.
ب- الاستغراب الأكاديمي منهجاًوخططاً وبرامج وأهدافاً، بل في هيئات التدريس والإشراف الإداريوالأكاديمي.
ج- الانغلاق الأكاديمي للجامعات والمؤسسات العلمية، وتحولها إلىمؤسسات بيروقراطية هيكلية تهتم بديمومتها الورقية. وهذهالمؤسسات صارت منغلقة بدل أن تكون منفتحة على المجتمعوهمومه وقضاياه وتحدياته.
د- أنانية الأكاديميين والباحثين، وغلبة الاهتمام بالسيادة والسلطةوجمع المال عليهم بدل تكريس أنفسهم للعلم والاختراع والإبداع.

٣. مواصلة الاعتماد على الغرب المتقدم .

في التجربة اليابانية نجد أنهم أرسلوا البعثات لمدة لا تزيد عن خمس عشرة سنة (1870 -1885)، وعاد هؤلاء المبعوثون، لينشئوا الجامعاتوالبحوث، ويقودوا أمتهم إلى التقدم العلمي. ولم يمض وقت طويل حتىصار تعاملهم مع الغرب تعامل الند للند، وليس تعامل الرضيع معالمرضع أما نحن، فبعد مئتي سنة من البعثات، لا نزال حيث نحن.

إن هذه ليست دعوة إلى الانغلاق، ولكنها دعوة إلى التميز والإبداع .فالمبعوث لا ينقل العلم فقط، بل ينقل الحضارة والمدنية، مما جعلمبعوثينا غرباء في بلادهم ومؤسساتهم. والتحدي هو أن لا يذوب هؤلاءالمبعوثون في البلاد الأخرى، سواء أكان هذا الذوبان كاملاً في اختيارالبقاء في ذلك البلد، أم ذوباناًفكرياًحضارياً، مع وجود أبدانهم فيبلدانهم الأصلية.

وعلاج ذلك، بتقوية برامج الدراسات العليا، لتكون على المستوىالعالمي، حيث لا نحتاج إلا إلى إرسال عدد قليل جداً ولفترات قصيرة،وأن نحرص على أن يكون هؤلاء المبعوثون

من الممتلئيناعتزازاً بأمتهم،

المدركين لرسالتها الإنسانية، المستعصيين على الذوبان. ولقد آن الأوانلكي لا يظل هذا نزفاً دائماً باتجاه واحد.

٤. **التحدي أمام الوجود الصهيوني، وما يسمى عملية السلام ومابعدها:**

سيظل الوجود الصهيوني على أرضنا في فلسطين وغيرها تحدياًقوياً دائماً لأمتنا في كل ميدان. والتحدي العلمي التقني واضح ، في أن هذاالكيان هو جزء من المنظومة الغربية المتقدمة بمؤسساته العلمية، وصناعاتهوأبحاثه واختراعاته. فعنده مفاعلان نوويان قد أنتجا ما يقدر بأنه مئتاقنبلة نووية. وها هو يتعاون مع الولايات المتحدة في تطوير تقنياتواختراعات كثيرة، ومنها الصواريخ المضادة للصواريخ. وتقدمهالإلكتروني جعل الشركات الأمريكية تشتري من إنتاجه.

أما بعد عملية السلام، إذا أسفرت المفاوضات عن اتفاقيات، فسيكونالتحدي هو الأصعب! لأن ما يخبئه هذا العدو لنا هو أن يكون يابانالمنطقة تقدماًعلمياً، وتكون عنده الشركات المنتجة. ونحن العرب سوقاستهلاكية، وعمال في المصانع، وأرضنا تقدم ثرواتها من خامات لهمبأبخس الأثمان.

إن قضية ما بعد السلام هي قضية حياة أو موت لأجيال هذه الأمةومستقبلها. و آن الأوان للمفكرين والإعلاميين أن يشرعوا بحملة إعلاميةضخمة ليوقظوا هذه الشعوب من أحلام الأوهام وسبات الفناء.

٥. نحو مستقبل مشرف :

أقدم فيما يلي بعض الاقتراحات لتعين أمتنا في مواجهة التحديالتقني، لتخرج منه منتصرة بإذن اهلم:

أ- وجوب إعادة النظر في أهداف التعليم والبحث،وربطها عضوياً،بالمجتمع والإنتاج والتقدم.

ب- تقوية برامج الدراسات العليا والبحث العلمي لتكون على المستوىالعالمي، من أجل الاكتفاء الذاتي، وتشجع الإبداع .

ج- تقوية الروابط الداخلية بين الدول الإسلامية والمؤسسات العلميةفيها، وأن تصير المؤسسات المشتركة فاعلة حقاً في الميدان، وليكونهذا امتحاناً لوجودها. ولا بد من تبادل العلماء والباحثين والبرامجوالخطط والنتائج.

د- التركيز على هموم أوطاننا وشعوبنا وحلها، دون الاهتمام بالتقليدالأعمى، مع توجيه القوى البشرية والمصادر المادية نحو ذلك.

هـ- تشجيع إقامة المصانع برأسمال مشترك بين الدول الإسلامية، وتشجيع قيام شركات إسلامية متعددة الجنسيات.

و- تشجيع الأوقاف العلمية غير المشروطة لدعم البحث والعلموالإبداع دون حدود.

ز- وضع برامج تربوية شاملة للبيت والمدرسة والشارع لإعادة الاعتزازبهذه الأمة، وتوجيهها نحو الصناعة والعلم والتقدم التقني.

ح- تأكيد هوية الأمة العربية الإسلامية في لغة العلم بينها وهي اللغة العربية ، ومع الاهتمام بتراثها المجيد، وتنوعها الفريد.

ط- تكريم الإبداع والمبدعين من علمائها على مستوى الأمة كاملة .

ي- الاهتمام بالمبدعين، بالكشف عنهم في سن مبكرة، ورعايتهم رعايةصالحة شاملة، لأنهم الدم المتجدد والشريان الدائم.

ك- نشر الوعي بقضايا الأمة من وجهة نظر إيجابية،وقابلية هذه المشكلات للحل، بدلاً من سدل ظلام اليأس، ونشر أنفاس العجزفي الصدور والعقول.

وأسأل الله التوفيق والسداد، والإخلاص في العمل.

كلمة

الأستاذ الدكتور همام غصيب

عضو المجمع

أيّها الحفلُ الكريم:

لا بُدَّ أوّلاً من كلمة شكرٍ وتقدير أزْجيها للأستاذ الدّكتور رئيسِ المجْمَع وزملائي الأفاضل، أعضاء لجْنَةِ الندواتِ فيه، على دعوتِهم الكريمةِ لي للمشاركةِ في هذه النّدوةِ الموفّقةِ بإذن الله.

ولا بُدَّ ثانياً من الاعتراف بأنّ موضوعَنا اليوم أطولُ وأعرضُ وأعمقُ من أنْ تَفِيَهُ حَقَّهُ نَدْوَةُ ساعةٍ أو ساعتيْن ؛ فهو بحاجةٍ إلى أكثرَ من مؤتمرٍ متخصّص ومجلّدٍ متعمِّق كي يُفْصِحَ عن أبعادِهِ ومكنوناته.

دَعُوني، إذاً، أتصدّى له بأنْ أحدِّدَ بعضَ محاورِهِ المهمّة وأتدبّرَ عدداً من الأفكارِ والنّظرَات.. أملاً أنْ تنتظمَ هذه كافّةً - في نهاية المطاف - بعِقْدٍ واحد.

المحور الأوّل: الهُويّةُ العربية الإسلاميّةُ والعالَمُ العربيُّ الإسلاميّ:

نستطيعُ أنْ نتحدثَ عن هُويّةٍ وثقافةٍ عربيّةٍ إسلاميّة (دون شَرْطةٍ أو مائلة أو واو عطف)، وعن عالَمٍ عربيّ إسلاميّ لأنّ هذا العالَمَ كوّنَ تاريخياً، كُلاً متجانساً لمْ تتمكّنْ كل الاضطراباتِ الدّاخليّةِ والغَزَوَاتِ والاجتياحاتِ من فَصْمِهِ على الصعيد الثّقافيّ والرّوحيّ. وامتدّت الحضارةُ العربيّةُ الإسلاميّةُ امتداداً شاسعاً في الزمانِ والمكان. وكان النّاسُ ينتقلون بحريّةٍ تامّةٍ في هذا العالَم، مثلهم مثل الأفكار؛ كما كانت العربيّةُ عموماً لغةَ النُّخَبِ المثقّفة.

أمّا اليوم فالوَضْعُ جدّ مختلِف: إذْ إنّ معظمَ المسلمين موزّعون في دولٍ مشتتةٍ تكتنفُها المشكلاتُ والصّعوبات من كلّ حِدْب وَصَوْب. وتُعَد جميعُ

الدول الإسلاميّةِ المعاصِرَةِبلْداناً ناميةً على الصّعيدِ الصّناعيّ التقانيّ، حتى ولو كان بينها دولٌ من أغنى دولِ العالمَ، وأخرى من بين أكثرِ الدّولِ فقراً. وتبدو صورة العالَم الإسلاميّ متصدّعةً مفككةً إلى أبعدِ الحدود. فماالذي يَجْمَعُ - للوهلةِ الأولى - بين الجَبَليّ اليمنيّ أو الأفغانيّ، الذي يعدُّ كلّ "حديث" ومعاصِرٍ غَيْرَ إسلاميّ، والمدنيّ التركيّ أو المغربيّ الذيأضحى غربيّاً أكثرَ من الغربيّين؟ أضِفْ إلى ذلك أنه تولد داخل كلِّ بلدٍ إسلاميّ توترٌ متفاقِمٌ بين النُخَبِ"المتغرّبةِ"، وحَلقاتِ المجتمع التقليديّة.

المشكلة أنّه حدثَ خلْطٌ بين مَفهُومَيّ"التحديث" و"التغريب". فالمفهومالأوّلُ يتفقتماماً مع روحِ الإسلام الشّاملة؛ بينما يمثلُ الثاني عدواناً بلغزواًفكريّاً يجبُ مقاومته. من هنا، فلا تناقُضَ بين الإسلام وظاهرة العلم والتقانة، التي تتحكم تحكماً واسعاً في ترتيب العَلاقاتِ الاجتماعيّة.والسّؤال الذي ينبغي أنْ يُطرَح هو: ماذا تستطيعُ هُويةٌ خصوصيةٌ كالهُويّةالعربيّةِ الإسلامية تقديمَه للتقدّم العلميّوالتقانيّ؟... قبل أنْ أجتهدَ وأجيب،دعُوني أتدبّر المحورَ الثاني.

المحور الثاني: العِلمُ والتقانةُ الحديثة:

ما العلم؟ بإيجاز، هو منظومةٌ مُنسَّقةٌ ومُوَحَّدةٌ لسَبْر غَوْرِ الطبيعة،اعتماداً على طرائقَ تجريبيّةٍ وعَلاقاتٍ موضوعيّةٍ تكتشفتجريبيّاً وتؤكَّدُ بمنهجياتِ بَحْثٍ مُحَدَّدة. أمّا التقانة، فهي - بإيجازٍ أيضاً- التطبيقُ العمليّ في وسطٍ اجتماعيّ ثقافيّ مُعَيّن لاكتشافاتِ العِلمْ "البَحْت". ومعأنّ المفهومَيْن متباينان نظريّاً، إلا أنهّما مترابطان في واقعِ الحال ترابطاً جدليّاًقويّاً: فالعلمُ يولّد تِقاناتٍ جديدةً تُسْهِمُ بدورها في تطوّر العلم... تطوّرُ العِلمْ والتقانة معاً خاضعٌ دون أدنى ريْب، إذاً، لتأثير الوَسَطِ الاجتماعيّ الثقافيّ الذي أنجَبَه. ومعنى ذلك أنّ ظاهرةَ (أوعمليّة) العلمِ

والتقانة ليست "محايدة"؛ فهي تعكسُ بعض الخيارات التي تكوّنُ بمجملِها"أيديولوجية" متكاملة. وهنا بيتُ القصيد. لهذا، لا بُدّ من وقفةٍ متأنيةٍ نستشرفُ فيها مدلولَ هذه الملاحظةِ العميقة.

نلاحظ أولاً أنّ الدّعوةَ إلى العلم والتقانة، خصوصاً في المنابرِ التي تناقشُ التنميةَ الاقتصاديّة والنّظام الدّوليّ الجديدَ المزمع إنشاؤه، قد غدَت اليومَ أشبه بالصّيغِ السّحريّةِ والبلسم لكلّ داء. فأدخلتْ هيئةُ الأمم المتحدة في كثيرٍ من برامجها، أهدافاً مثلَ التّرويج لنقلِ التقانة أو تحويلها إلى البلدان النّاميةِ بفضل التّعاونِ الدولي، وبالتالي تخفيض الفارقِ في مجال السّيطرةِ على المعارفِ التّقانية. مثلُ هذه الأهداف، الضّروريّة والمشروعة كما تبدو للوهلةِ الأولى، قد تزيد - على المدى المتوسّط- التّبعيَّة الاقتصادية للبلدان الأكثر ضَعْفاً، وقد تسرّعُ عمليّةَ التّغريبِ على شكلِ اجتياحٍ بنيويّ وثقافيّ...مولّدة بذلك من المشكلات الاجتماعيّة ما يَطغى على أيّ حُلولٍ تقدّمُها لمعضلة التنمية والحقّ أن جُلّ دول العالم الثالث لا تمتلك "أرضية صناعية" تستطيعُ التقانة أنْ تزدهر عليها. أضفْ إلى ذلك أنّ الدّولَ الصناعيّة تُبْقي - بكلّ خُبْث ودهاء- على تَبَعيّةِ العالم الثّالثِ بأنْ تبيعه تقانة غيْرَ ملائمةٍ أو لا قيمة لها... ناهيك عن السعر المرتفع، وعدم معرفةِ البلدان المشترية المعيارَ الذي حُدِّدَ به هذا السِّعْرُ.

ونلاحظُ ثانياً:إنّ العلمَ لا يَزيدُ من كميّةِ المعارف حَسْبُ، وإنّما يُغَيِّرُ أيضاً طريقة التفكير نفْسَها في الإنسان والعالم. وترتبطُ هذه الظاهرة بتطوّر القوى المنتجةِ التي تزيدُ بدوْرِها من العقلانيّة، وهلمّ جَرّا، في سلسلةٍ من التّفاعلات ؛ فيتسارع التقدّم، البطيءُ أوّلَ الأمر، ثمّ تُمسي سرعتهُ صارخةً مدوخةً. أمّا الروحانيّة: أي الأخلاقُ والتفكيرُ في المشكلاتِ الإنسانيّة والاجتماعيّة، فتتلكأ بالضّرورة وتعجزُ عن اللّحاق. لقد زَعَمَ

الغربُ القدرة على حلّ جميع المشكلات تقانيّاَ؛ لكن نظرتَهُ الماديّة هذه، المتهاونة بالقيم الرّوحيّةِ والثّقافيَةِ،بدأتْ تفقدُ بريقَها وأخذتْ قطاعاتٌ معيّنةتستنكرها.

نلاحظُثالثاً:إذاً، إنّ العلمَ اليوم "غربيّ". إنّه يبهرُ ويولّد في نفوسِ الناسِالرّجا ءَ والثّقةَ والأمن ؛ لكنّه أيضاً مَرَضِي... بمعنى أنّ انفصالهُ عن القيمِوالأخلاق سَمَحَ له بأن يُخصّص أكثر من أربعين (40) بالمئة من إمكاناته المجهودِ الحربيّ ؛ إذ إنّ المموِّل والمشجّعَ والمستهلِكَ الرّئيسيّ في البلادالصّناعيّة لجميع الاكتشافات التي طبَعَتْ عَصْرَنا بطابعها كما سَتطبَعُ العصور القادمة، كان دائماً القوّاتِ المسلّحة، والمؤسسة العسكريّة...خذْمثلاً الاكتشافات والاختراعات النّوويّة، ارتياد الفضاء، التّقانة الحيويّة والهندسةَ الوراثيّة، المعلوماتيّة وشبكات الاتّصالات المتقدمة، التدخّلاتِ المناخيّةِ... أضفْ إلى ذلك أنّه من الجائز أنْ يُفضيَتهاونهُ بتوازنِ الطبيعةِ إلى كارثةٍ بيئية رهيبة، نظراً لتبذيرِ المواردِ الطبيعيّةِ وتراكمِ النّفايات، بمافيها الفضلاتُ النّوويّة.

على أيّ حال، لقد أسهمَ العلمُ الحديثُ إسهاماًكبيراً في دَفْعِ عجلةالتقدُّم الإنسانيّ، في المضمار المادّي على الأقلّ؛ فليس القصْدُ هنا محاكمَته،وإنّما التّساؤل حول حيادِه و"كَوْنِيّته". صحيحٌ أن العِلمَ"المحْضموضوعيّ؛ إذ إنّ التّحيّزَ والتعسّفَ مناقضان له من حيث المبدأ، لكنْ هليعني هذا أنْه حُرٌّ من كلِ قيمةٍذاتيةٍ؟... نشكُّ في ذلك لأنّ العلمَنشاطٌ معرفيّ واجتماعيٌأيضاً، فهو يحملُ بَصَمَاتِ النّاس أو المؤسّساتِ التي أنتجَته.

وقُصارى القَوْل: إنّ أيّ منظومةٍ علميةٍ ليست عامّة ولا محايدة. فلا بدّ منإعادة النّظر في الأسس الأخلاقيّة والفلسفيّةِ التي أقيمَ عليها العلم

وتكييف عَلاقاتِهِ مع المجتمع والطّبيعة. وهنا تستطيعُ حضارات أخرى تقديمَ الحلول بعوْدتِها إلى روحها وارْثها الثقافيّ. وهذا تحَدّ بارزٌ لنا... ويقودُنييدوره إلى المحور الثالث.

المحورالثالث: هويّتنا فيمواجهة التحدّيالعلميوالتقاني الحديث

واضحٌ أنّ التقدّمَ العلميّ سيكونُ مقبولاًومهضوماً من الأمّة فقط إذاانسجمَ مع الأصالة العربيّة الإسلاميّة. لكنْ لا يمكنُ رفضُ كلِّ صورةٍ للتقدّمجملةً وتفصيلاً، لأنّ"الحداثة" ليستْ "غربيّة"فقط ، بل هي عالميّة، ولا يمكنُ أنْ نظلَّ بمَعْزلٍ عن التقدّم العالميّ الذي ي غذّ الخُطى دون كلَلٍ أو مَلَلٍ. المحذورُ هنا أنّ استيرادَ التقانات الأجنبيّة دون تمييز قد تكونُ له العواقبُ الوخيمةُ نفسُها لرفضها، وقد يدفعُأحياناً إلى تناقضُاتٍ دامية.

لقد جازفَ العالمُ الإسلاميّ اليوم بالانخراطِ في عجلةِ التحديثِ السّريع. وتجري هذه التجاربُ التحديثيّة ُبشكل عشوائيّ. وهي جميعاً متأثّرة بدَرَجَاتٍ متفاوتة، بالنموذج الغربيّ؛ فلا تنهضُ فيها القيَمُ التقليديّة إلا بدور هامشي. هنا يكمن التحدّي الثقافيّ. فليس المطلوبطُبعاً رَفْضَ الحداثة، وإنّما العثور على حُلولٍ أصيلة ومُبْدَعةٍ، خصوصاً أنّ البلدانَ الصناعيّة لا تشجّعُ عموماًالتقدّمَ العلميّ في العالمِ الثالث إلا إذا كانتالخياراتُ متطابقة مع تصوّرها النظريّ الخاص ومصالحها الاقتصاديّة.المطلوب، بعبارة أكثرَتحديداً، انتهاجُ سياسة جديدةٍ في المجال الثقافيّ التربويّ تسهمُ في تغييرِعلاقة القوى الرّاهنة، التي تحافظ على تبَعيّةِ العالمِ الإسلاميّ للتقانة الخارجيّة بل تزيدُ منها، فتحولُ بذلك دون اكتشافِبدائلَ مستقلّة.

لا يستطيع العالمُ الإسلاميّ، وهويؤكّد نفْسَه، أنْ ينغلق، إذاً: سيكون

ذلك مخالفاً لتجربتِهِ التاريخيّةِ المعروفة، فضلاً عن أنّ العُزْلة تعني الموْتَ المحَقق في المجال العلميّ. فالانفتاح (واعذروني على استعمال هذه الكلمة) يمثّل عَزْماً سياسياًواختياراًاقتصادياً. ويمكن أن ينكب الجهدُ في بدايةالأمر على إنشاء "الأمّةِ العلميّةِ الإسلاميّة"، على أساس أنّ توحيدَ أهلِالعلم أكثرُ سهولة من الوَحَدةِ السياسيّة.كما يجب أنْ يكونّ الجهْدُقوميّاً أو إقليميّاً: فالعلم نشاط مشاركة.. الأمر الذي يتطلّب العنايةَ البالغةبالتّعليم العامّ والمؤسّسة التربويّة.

ولا مَفرّ من الاعترافِ هنا بأنّ سياسةَ التّنمية العلميّة والتّقانيّةِ مرتبطة ارتباطاًوثيقاً بالأهدافالأكثرشمولاً للتنميةِالاقتصادية. فالحلول النابعة منصُلبِ الأمة تُجْهَضُغالباًبسبب الإطارِالاقتصاديّ العالميّ المرضيّ الراهن؛ إذ إنّالعالميّة الاقتصادِالمتزايدة تميلُ إلى الحدّ أكثر فأكثر منالاستقلال الحكومات الوطنيّة. وهكذا غَدَتْ دائرةُالمبادرةِ والاستقلالِ ضئيلةبالنسبةِ إلى الدولِ الأقلّتقدماً.

لقد أقيمتْ جميعُ الحضارات الكبرى على المكوّناتِ الثلاثة الجوهريّةِ للطبيعة الإنسانيّة: المعرفة والعمل والوجْدان. فالعلمُ والتّقانة يندرجان فيباب "المعرفة"، و"العملُ" يتطابق مع الوعي المتزايدِبالمسؤوليّةِ الاجتماعيّةلكلّ فرد،و"الوجدانُ" ينطوي على القناعةِالروحيّة والاستمراريّة الثقافيّة.التحدي هنا أنْ نربط بإحكام بين هذه المكوّنات الثّلاثة، متجاوزين حالةالجمود والسُّبات التي استطاع ابن خلدون أن يُعَبِّرَ عنها ببلاغةٍوإيجاز.

والتحدّيأيضاً تحديدُ التوازُن بين هُويّة الأمّة وضرورةِالتّغيرِوالتّواصلِ الثقافيّ.. بين الأصالةِ والتجديد.

والسّلام عليكم جميعاً، ورحمة اللهِوبركاته

المحاضرة الثانية

هوية الأمة العربية الإسلامية في مواجهة التحدي الإعلامي

الدكتور محمد نجيب الصرايرة
جامعة اليرموك

الأحد 2 ذو القعدة 1412هـ، 3 أيار 1992م

نحن نعلم أن عقد السبعينيات كان أكث ر العقوداضطراباً في مجالالاتصال الدول ي. ففي تلك الفترة، وبعدها، وجهت موجة من النقدالحاد للنظام الاتصالي"الحر " الذي فشل في إيجاد حلول منطقية وجادةلمشاكل الاتصال الدول. فبقي القوي قوياً، وازداد قوة، في حين بقيالضعيف ضعيفاً وازداد ضعفاً. ولعل من أبرز السمات التي تميز بها النظامالاتصالي "الحر" دوره في خلق فجوة اتصالية عميقة بين الدول "التيتملك" والدول الفقيرة. هذه الفجوة أدت إلى خلق حالة من عدم التوازنفي مجال تدفق المعلومات على المستويين الكمي والكيفي، إضافة إلى تعميقالفجوة القائمة بين الجانبين في مجال تقنية الاتصال. ولعل الخلل الذيأصاب النظام الدول ي وبروز فكرة النظام الدولي الجديد ، يكون مؤشراً واضحاً على تكريس الفجوة القائمة، وتعميقها من خلال إحكام الدولالغربية - وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية- سيطرتها على التقنيةالاتصالية ، وتدفق المعلومات كماًوكيفاً على الصعيد الدولي. هذه السيطرةفيمجال التقنية والمعلومات التي مارستها الدول الغربية وبخاصة الولاياتالمتحدة الأمريكية، والتي ستمارس بشكل أكثر بشاعة في المستقبل عرفتبأسماء مختلفة، منها الغزو الثقافي، والهيمنة الثقافية ، والهيمنة الإعلامية.ويبدو أن هذه التسميات التحديات، تعوزها الدقة وإن كانت الأخيرةأكثر قرباً في دلالاتها للمعني المراد. في هذه المحاضرة، سوف نستعملتعبير"الهيمنة الاتصالية" لأنها تعكس الصورة بشمولية أكبر منها في حالةالهيمنة الإعلامية، حيث تبرز الهيمنة في مجال الاتصال بمظاهر عديدة ،ولا تقتصر على البعد الإعلامي فحسب، بل تشمل أبعاداً أخرى منهاالإعلان، الأفلام والبرام ج المستوردة وكذلك تقنية الاتصال.

أما فيما يتعلق بالتسمية الأولى، الغزو الثقافي، أو الثانية، الهيمنةالثقافية، فهي الأكثر شمولاً،التي تنعكس من خلال أبعاد مختلفة تأخذ

أشكالاً اجتماعية ونفسية واتصالية. فالهيمنة الاتصالية تمثل إحدى مسبباتا لهيمنة الثقافية ، ولا يمكن النظر إليها بمعزل عن المظاهر الأخرى التيذكرناها، والتي تشكل متفاعلة مفهوم الهيمنة الثقافية، التي بدورها تمثلإ حدى صور الهيمنة بم فهومها الشامل. ويبقى لنا أن نتساءل عن معنىالهيمنة الاتصالية، وكيف تنظر إليها المدارس الفكرية. وفي هذا المجالاختل فت الاتجاه ات حول إيجاد تصور واضح أو معنى محدد لهذه الظاهرة.

غير أنه من الممكن حصرها في دائرتين اثنتين:

- **الأولى ممثلة بأنصارنظرية التبعية.**
- **والثانية ممثلة بأنصارنظريةالانتشار.**

نشأت مدرسة "التبعية"أساساً كرد فعل للمعاناة التي عاشتها شعوبالدول النامية من "تجربة نمط النمو الاقتصادي القائم على الاندماجالكامل في السوق العالمي ، والموجه أساساً إلى خدمة احتياجات الدولالصناعية الاستعمارية". ويلخص أنصا ر هذا الاتجاه رؤيتهم في مجالالاتصال على الصعيد الوطني لدول العالم الثالث بوصفها امتداداً لما يجريعلى الصعيد الدولي. فوسائل الاتصال في الدول الرأسمالية تمارس دوراً جوهرياً في تحقيق الأرباح من ناحية، والتحكم في الوعي القوميوالاجتماعي بهدف المحافظة على الوضع الراهن.

ه ذه الصورة لا تختلف كثيراً في الدول النامية حيث تتحكم النظم الحاكمة في هذه الدول بمساعدة من الشركات والاحتكارات متع ددةالجنسيات في احتكار و سائل الاتصال وتسخير ها لخدمة مصا لحها بحيثتصبح أدوات إعلامية ودعا ئية ت روج لمصالح النخبة السياسية الحاكمة،وبهذا تصبح الدول أسواقاً للمنتجات الاقتصادية والعسكرية والثقافيةللنظم المهيمنة.

ويرىأنصار هذه المدرسة أن النظام الدول السائد يعكس علاقات من

الهيمنة والتبعية. فالنظم المهيمنة تعمل على توسيع هيمنتها وتثبيتها بطرق واعية ومدروسة، وبأساليب مخطط لها، وذلك بهدف خلق ثقافة عالمية متماثلة هي "الثقافة الاستهلاكية"، وبالتالي إيجاد سوق عالمي واحد يستقبل قيمها الثقافية، ومنتجاتها الاستهلاكية. ويبرز بعض أنصار هذه المدرسة الدور الخطير الذي تلعبه الاحتكارات الأمريكية في المجالين العسكري والاتصالي للمحافظة على تفوقها وهيمنتها في المجالات المختلفة. فالباحث الأمريكي شيلر (Schiller) يشير إلى أن هذه الجهود تأخذ شكلين اثنين:

الأول: مباشر عن طريق وزارة الدفاع الأمريكية التي تساهم في وضع السياسة الوطنية الأمريكية في مجال الاتصال.

الثاني: غير مباشر، عن طريق الشركات الأمريكية الخاصة التي تعد من أكبر الشركات الأمريكية التي تربطها عقود تجارية كبيرة في مجال الاتصال مع الوزارة المذكورة.

ويؤكد الباحث أن هيمنة وسائل الاتصال الأمريكية مرتبطة بالسياسات الخارجية والدفاعية الأمريكية التي تعتبر وسائل الاتصال إحدى أدواتها المهمة، كونها امتداداً طبيعياً لحالة الهيمنة الأمريكية على الصعيد الدولي. ويضيف أن التفوق الذي تسعى السياسة الأمريكية للوصول إليه، يمكن تحقيقه من خلال السيطرة على تقنية الاتصال بكافة أشكالها، بالإضافة إلى توسيع دائرة النظم الاتصالية التجارية عالمياً، مؤكداً أن الهدف الرئيس وراء ذلك يكمن في المحافظة على الامتيازات الاقتصادية التي تحققت لها، بالإضافة إلى منع حدوث أي تغيير على المستوى الاجتماعي للنظم التابعة من شأنه أن يحدث تغييراً في الوضع الراهن.

وتلعب الشركات متعددة الجنسيات أثناء توسعها على المستوى الدولي دوراً مهماً في فرض نماذج اقتصادية تشجع على قبول معايير وقيم ثقافية ملائمة لإحداث هذا التوسع، مشيراً إلى أن الأخبار المتعلقة بالشؤون

الداخلية والدولية، بالإضافة إلى الأفلام، وأشرطة التسجيل والمجلات ومطبوعات المدارس، وبرامج التلفزيون وغيرها تروج "لأنماط من الحياة" تساعد في عملية تحويل المعايير والقيم المحلية أو الإقليمية ونقلها لتصبح ذات صيغة عالمية. هذه العملية يرافقها انتشار وتركيز للمؤسسات الاقتصادية والمالية المهيمنة داخل النظم التابعة.

أما الاتجاه الآخر الذي يتبناه أنصار نظرية الانتشار، فيركز مؤيدوه في رؤيتهم لظاهرة الهيمنة الاتصالية على العملية الوطنية لتنمية وسائل الاتصال، إضافة إلى الدور الذي تلعبه القيم والمعايير الاجتماعية الوطنية في تنمية النظم الاتصالية. ويقبل أنصار هذا الاتجاه تشخيص الوضع الحالي للتدفق المعلوماتي القائم على احتكار قلة من الدول لمصادر المعلومات، وبالتالي تكريس حالة

الاتجاه الأحادي لسريان المعلومات إلا أنهم يطرحون تصوراً مغايراً لمفهوم الهيمنة الاتصالية كما أبرزه مؤيدو نظرية التبعية.

يؤكد أنصار "الانتشار" على مفهوم الهيمنة الاتصالية كأداة تحليلية متميزة، كونها تشمل عدداً من الظواهر الأكثر تحديداً من كونها نمطاً اختبارياً صارماً يرتبط بالهيمنة الثقافية، أو الهيمنة بمفهومها الشامل.

فظاهرة الهيمنة الاتصالية تتضمن:

- تصدير البرامج التلفزيونية من الدول المتقدمة إلى دول العالم الثالث.
- انتشار نماذج النظم الإذاعية والتلفزيونية للدول المتقدمة في دول العالم الثالث، وغلبة النموذج التجاري عليها.
- الملكية الأجنبية لوسائل الاتصال في الدول النامية.
- السيطرة التي تفرضها الدول المتقدمة على السوق الاتصالي الدولي، وغزو الرؤى الرأسمالية للعالم الثالث، وتشويهها للأنماط الوطنية للدول المستقبلة.

ويرى بعض أنصار هذه المدرسة أن هيمنة وسائل الاتصال الأمريكية تعود لأسباب متعلقة بطبيعة منتجها الذي يتميز بانخفاض سعره، وارتفاع جاذبيته، وفي الوقت ذاته قدرته على ملاءمة الأذواق الشعبية، بالإضافة إلى أن القدرة الأمريكية أو الأنجلو أمريكية على استيعاب العملية الاتصالية - وبخاصة في مجال التلفزة - قد أدت إلى تسيد المنتج الغربي دون سواه، وعلى الطرف الآخر وفي الاتجاه نفسه هناك من يرى أن اعتماد دول العالم الثالث على البرامج المستوردة يعود لمجموعة معقدة من الأسباب أكثر من كونها مرتبطة بالرغبة الاستعمارية فقط، أو كون هذه البرامج ملائمة لأذواق الناس. ويؤكدون أن درجات التبعية متباينة، ومتأثرة بتفاعل عدد من المتغيرات الداخلية مثل البنى التحتية، والنظم السياسية والاجتماعية والتقاليد الثقافية، والبناء الاقتصادي، وأخرى خارجية مثل: الضغوط من قبل الدول المتقدمة. ويمكن لنا تحديد

مواقعالاختلاف بين الاتجاهين في رؤيتهما لظاهرة الهيمنة الاتصالية في ثلاثةمحاور رئيسية هي:

أولاً: يؤكد أنصار نظرية الانتشار في نظرتهم لظاهرة الهيمنة الاتصاليةعلى العملية الوطنية لتنمية نظم الاتصال، إضافة إلى الدور الذي تلعبهالقيم والمعايير الاجتماعية في تنمية هذه النظم. في حين ينطلق مؤيدونظرية التبعية في دراستهم للمشاكل التنموية، ومنها الاتصالية، في دولالعالم الثالث، من تحليل علاقات القوى الدولية. هذا النظام بنظرهم يقومفي الأساس على خدمة مصالح الدول المتقدمة، ويؤكد أنصار نظريةالتبعية أن ا لشركات متعددة الجنسيات، بالإضافة إلى المساعدات التيتقدمها الدول المتقدمة للدول النامية، وطبيعة السوق العالمية، وكذلكنظام الأرصدة الدولي، هذه وغيرها تشكل مظاهر التبعية بمفهومهاالشامل.

ثانياً: يرى أنصار نظرية الانتشار أن حالة التبعية هي حالة مؤقتة.

فالدول النامية يمكن لها أن تستعير التقنية والثقافة من الدول المتقدمة ثمبعدها يتم تطوير ه ا، وتكييفها لتتفق والمعاييِر الثقافية السا ئة. ويشيرمؤيدو ه ذا الاتجاه إلى أن هناك كماً هائلاً من العناصر الثقافية الأجنبية التيتم تكييفها لت لائم الثقافات الوطنية المستقبلة. فخلال ه ذه العملية تبرزحالة من التبعية المبدئية نتيجة للتفاعل م ع الثقافات المستوردة، ثم بعدذلك يتم إضفاء شئ من الثقافة الوطنية على العناصر الثقافية المستوردة،بعد ه ا يتنامى، وبشكل نسبي ، التفاعل الثقافي الوطني وعلى الاتجاهالآخر، يرى مؤيدو نظرية التبعية أن النظام الدول ي السا ئد، بما يفرزه منعلاقات دولية قائمة على ا لهيمنة والتبعية، يشكل صيغة تجسد الهيمنة الاتصالية كحالة دائمة وليست مؤقتة.

ثالثاً: يرى أنصار نظرية الانتشار أن وسائل الاتصال تمثل أدواتتخدم عملية التنمية، في حين يرى أنصار الاتجاه المضاد أن النظام الدولي الحالي يمثل وكيلاً للقوى المهيمنة في تثبيت النظام الإعلامي الحر، الذييشكل عقبة أمام تحقيق التقدم الاقتصادي والاجتماعي المتوازن.

مظاهرالهيمنةالاتصالية في الوطن العربي:

- التدفق الإخباري الدولي : أوضحت المناظرة الدولية في مجالالاتصال خلال السبعينيات والثمانينيات أن سريان المعلومات بشكل عاموالأخبار بشكل خاص يسير باتجاه واحد من الدول المتقدمة إلى الدو لالنامية. وتلعب وكالات الأنباء الغربية دوراًبارزاً في عملية نقلالمعلومات دولياً. وتعتبر هذه الوكالات : الأسوشيتدبرس، ويونايتد برسإنترناشيونال، ورويتر،والفرنسية للأنباء، الموزع الرئيس للأنباء علىالصعيد الدولي. وباستثناء عدد قليل من صحف العالم التي تنتمي إلى المعسكر الغربي فإن صحف العالم تعتمد بشكل كبير أو كامل على وكالاتالأنباء، فعلى صعيد الوطن العربي، أشارت إحدى الدراسات إلى أن

46,7% من الأنباء الدولية التي تم نشرها في تسع صحف عربية كانت قد نقلت إليها عبر الوكالات الغربية الكبرى، وأن 26% نقلت عبر وكالات أنباء عربية، وهذه غالباً ما تعتمد بشكل كلي أو جزئي على الوكالات الغربية و 25% نقلت عن صحف وإذاعات، وهذه غالباً ما تكون غربية، و2% نقلت عن وكالات أنباء تتبع دولاً اشتراكية. وأضافت الدراسة، أن الوكالات الغربية الأربع كانت مصدر 43% من الأنباء التي نشرتها الصحف العربية حول الوطن العربي ، بينما كانت وكالات الأنباء العربية مصدر 42% من هذه الأنباء ، وكذلك سيطرت الوكالات الأربع على التدفق الإخباري القادم من الدول النامية بنسبة 50% في حين كانت وكالات الأنباء العربية مصدر 21.2% من هذه الأخبار. وأشارت دراسة أخرى أجريت حول الصحافة الأردنية إلى أن حوالي 70% من أخبارها الدولية تصل إليها عبر وكالات الأنباء الغربية الأربع. في حين تتقاسم النسبة الباقية وكالات إقليمية. وأوضحت دراسة أخرى أن صحيفة "الجوردان تايمز " لا تختلف في اعتمادها على الوكالات الغربية عن الصحف الأخرى. وقد أشار التقرير التمهيدي الذي رفعته المجموعة المكلفة بدراسة إمكانية إقامة هيئة عربية لتبادل الأخبار التلفزيونية في الوطن العربي ، أن معظم محطات التلفزة العربية يعتمد بشكل كامل على الوكالات الغربية في نقل الأخبار. وقد أشارت دراسة حول تدفق الأفلام الإخبارية للتلفزيون الأردني إلى أن الوكالات الغربية مهيمنة بشكل كامل، في حين لم يكن للتلفزيون الأردني أي مساهمة في تبادل الأفلام الإخبارية البالغة 500 فيلم كوّنت عينة الدراسة.

وعلى الصعيد الكيفي، فإن وكالات الأنباء الغربية تمارس هيمنة من نوع آخر يمكن تحديدها في شكلين اثنين:

الأول: التركيز على أخبار الأزمات والصراعات أو ما يتصل بمفهوم الأخبار السلبية.

الثاني : إقحام الرؤية الخاصة لهذه الوكالات في الأحداث الدولية ، وإعطاء هذه الأحداث وشخوصها صفات ونعوتاً تلائم وجهات نظرها من خلال تشويه المعلومات وتلوينها أو التعتيم عليها.

فالوكالات الغربية كانت دائماً متحيزة في تغطيتها للصراع العربي الإسرائيلي، وتقديم الشخصية العربية الإسلامية، وأستشهد هنا بما قاله أحد محرري صحيفة لوس أنجلوس تايمز، الذي أوضح أن الصورة العامة للعربي لدى غالبية الأمريكيين هي إما "مليونير أثرى من النفط" أو "إرهابي" أو "راكب جمال"، وأحياناً كثيرة تبرز شخصية العربي كونها مزيجاً مركباً من الحالات الثلاث.

إن طرق تشويه المعلومات التي تمارسها وكالات الأنباء العالمية تتعدى حدود نشر معلومات كاذبة، لتأخذ أشكالاً أخرى منها:

- المغالاة في التأكيد على أحداث ليست لها أهمية.
- وضع الحقائق التي لا يرتبط بعضها ببعض في قالب واحد، وعرضها بشكل يوحي بأنها متصلة، وتكوّن حالة واحدة.
- عرض الحقائق بطريقة تولد نتيجة ضمنية تعكس حالة رضا أو حالة إعجاب بما يقدمه النظام المهيمن.
- التشويه القائم على خلق حالة مزاجية، وعقلية مسبقة نحو الأحداث وذلك عن طريق تقديم الأحداث ذات الأبعاد المعروفة بأسلوب يخلق حالة خوف، أو شك لا أساس لها من الصحة.
- التشويه من خلال التعتيم، أو عدم نشر أي معلومات متصلة بالحدث ،أو الموقف الذي لا يخدم مصالح الدول التي تنتمي إليها وكالات الأنباء العالمية.

ويمكننا هنا أن نلخص مظاهر الهيمنة التي تمارسها وكالات الأنباء العالمية بما يلي:

١ - الجانب الكمي، إذ تهيمن وكالات الأنباء على سوق الأخبار،وبذلك تكرس الاتجاه الأحادي لسريان المعلومات.

2- الجانب الكيفي، الذي يتصل بتحريفها للمضامين الإخبارية منخلال تركيزها على الأخبار ذات الطبيعة السلبية، إضافة إلى استخدامها صفاتاً ونعوتاً تعكس وجهة النظر الغربية فيالأحداث والزعامات.

٢ - سيادة المعايير والقيم الإخبارية الغربية في وسائل الاتصال العربية ،بحيث أصبحت هذه الوسائل نمطاًتقليدياً للنموذج الغربي فيمايتعلق بالأساليب والقيم الإخبارية التي ينظر من خلالهاللأحداث.

البرامج والأفلام المستوردة:

تعتبر ظاهرة استيراد البرامج التلفزيونية والأفلام السينمائية الغربيةبشكل عام ، والأمريكية بشكل خاص أحد المظاهر البارزة ظاهرة الهيمنةالاتصالية على الصعيد الدولي. فللتواجد المكثف لهذه البرامج لا يهدف إلىالتسلية والترفيه وحسب، بل يسعى بالدرجة الأولى إلى ترويج قيمومعايير اجتماعية وأنماط حياتية تخدم خلق ثقافة عالمية تهيئ الأجواء أمامبروز الأنماط الاستهلاكية وانتشارها عالمياً. فقد أشارت إحدى الدراساتحول تدفق البرامج والأخبار التلفزيونية إلى حقيقتين بارزتين:

١ - إن معظم الدول الأقل نمواً تستورد أكثر من نصف البرامجالتلفزيونية التي تعرضها.

٢ - إن الولايات المتحدة هي مصدر ثلاثة أرباع البرامج المستوردة.وتؤكد إحصائيات أخرى أن الدول النامية تستورد 65% منالبرامج والمسلسلات التلفزيونية، وغالبية ما تعرضه من أشرطةسينمائية، فعلى الصعيد العربي استورد المغرب خلال عام 1987

ألفاً وثلاثة وتسعين شريطاً سينمائياً ، في حين استوردت الكويت ثلاثمئة شريط سينمائي وتلفزيوني. وأشارت دراسة أخرى إلى أن نسبة ما استوردته الدول العربية التي شملتها الدراسة التي أجريت عام 1984، من برامج أجنبية كانت على النحو التالي:

الجزائر 55%، مصر 41%، سورية 35%، تونس 55%، اليمن الديمقراطية (قبل الوحدة) 47% من ساعات البث. وأوضحت دراسة أخرى (1985)، أن البرامج المستوردة في التلفزيون الأردني احتلت ما نسبته 55% من ساعات البث 45% منها استوردت من الولايات المتحدة الأمريكية.

هذه البرامج بالطبع، تعبر عن مجموعة من الأفكار والمواقف ، وبالتالي تنطلق من مجموعة من القيم تعمل على ترويجها بأساليب فنية راقية ، وبإبداع على مستوى الشكل والصياغة يجعل المتفرج أو المستمع في حالة تقبل وتجاوب وإعجاب.

وتعمل مضامين هذه البرامج المستوردة على تشويه صورة الإنسان في مناطق مختلفة من العالم. فمثلما تربط شخصية السود بالإجرام فإنها كما يقول جاك شاهين تربط شخصية العربي بثلاث صور هي: الثراء الخرافي ، الهمجية والتخلف ، والشبق الجنسي وبخاصة وراء المرأة الغربية. والنتيجة الملاحظة أيضاً أننا في الوطن العربي لا نعرف عن نماذجنا الوطنية بمثل معرفتنا عن النماذج الغربية. وبمعرفة أثر البرامج التلفزيونية المستوردة نستطيع أن نفسر وجود كثير من الظواهر الغربية التي تغزو حياتنا العربية ، فانتشار نموذج إليزابيث تايلور ، ومايكل جاكسون، ومادونا أو غيرهم، هو ترجمة بديهية لما يبث على شاشات التلفزيون ، وأكثر من هذا فالانتشار السريع للأطباق الغذائية الغربية، والأزياء الغربية هو نتيجة لما يشاهد في المسلسلات الغربية.

ويمكن تلخيص الدور الذي تلعبه البرامج والأفلام المستوردة في النقاط التالية:

١. إن تسيُّد المنتج الغربي في هذا المجال يؤدي إلى خلخلة النظمالاجتماعية في الوطن العربي، وذلك من خلال تحطيم نظم القيمالسائدة، واستبدال نظم غربية بها.

٢. تمثل هذه البرامج قناة تسويقية للمعايير الثقافية والاجتماعيةوالاقتصادية والسياسية للدول الغربية، وبذلك تصبح الدولالعربية بأنظمتها المختلفة فريسة لهذا الغزو الذي يستهدف هويتها واستقلالها الوطني على كافة الأصعدة.

٣. تشويه صورة الإنسان العربي من خلال خلق صور نمطية تحمل مضامين سلبية تجسد التخلف والوحشية في حين ترسم صوراً إيجابية للإنسان الغربي مرتبطة بالتحضر والإنسانية.

الإعلان الدولي:

أثّر التوسع السريع والمكثف للشركات متعددة الجنسيات على المستوىالدولي بشكل مؤثر في المجال الاتصالي. إذ أوضحت لجنة ماكبرايدلدراسة مشاكل الاتصال في العالم أن المرء يستطيع التحدث في الوقتالحاضر عن الاتصال كظاهرة عالمية، كما هو الحال في المجالاتالاقتصادية، حيث تهيمن بعض الدول المتقدمة على السوق العالمية في مجالي الخدمات والإنتاج في حقل الاتصال. غير أن التوسع السريع لهذهالشركات لم يكنممكناً في ظل نظام اتصالي دولي مكرس لخدمة حاجاتهاالمعلوماتية والإنتاجية فحسب، بل كان لا بد من نظام اتصالي يعمل علىخلق نظم عالمية تخدم تسويق منتجاتها على المستوى الدولي. ولعلشركات الإعلان الدولية ووكالاتها تمثل أحد أهم الأشكال في مجال

الاتصال، مثلما هو الحال بالنسبة إلى الشركات الأخرى التي تنتج الحاسوب، والأقمار الصناعية أو أدوات التقنية الحديثة الأخرى.

وتبرز أهمية هذه الشركات عبر معرفة الأرقام السنوية التي تعكس قيمة الإنفاق السنوي على الإعلان. ففي سنة 1981، بلغ الإنفاق السنوي على الإعلان 64 بليون دولار أمريكي، أكثر من نصفه أنفق على الإعلان في الولايات المتحدة الأمريكية. هذا الوضع يؤكد أن الإعلان الدولي يشكل ظاهرة أمريكية، على الرغم من أن هناك دولاً أخرى مثل بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، واليابان وكندا، تنفق كل واحدة منها على الإعلان أكثر من بليون دولار أميركي سنوياً.

ويبدو أن النظم الاتصالية في الوطن العربي قد تأثرت بشكل واضح بنظم الاتصال في الشمال الأمريكي. فقد كرست الأنشطة الاتصالية لخدمة العملية الاستهلاكية (البيع والتسلية)، فالإعلانات التجارية تشجع الصناعات الأجنبية (وبخاصة الأمريكية)، أو الصناعات المقلدة لمنتوجات أجنبية. ونظام الإعلان الأمريكي المهيمن لا يشجع مطلقاً مفاهيم مثل: التقشف أو ترشيد الاستهلاك أو عادات مثل: التوفير وتشجيع الإنتاج المحلي.

ومن الأمثلة البارزة على هيمنة النموذج الغربي في الإعلان أن فتاة الإعلان في الدول النامية، ومنها الدول العربية تحرص على صبغ لون شعرها وتعدل من أسلوب مكياجها، والزي الذي ترتديه حتى تصبح صورة "كوبونية" لفتاة إعلان أجنبية. وهذه الظاهرة في نظر الكثيرين تساعد على تكريس حالة التمزق الأسري والتردي الأخلاقي، بالإضافة إلى مساهمتها في تنمية النزعة الاستهلاكية داخل عقول الشباب والفتيات. والإعلان الغربي بشكل عام، والأمريكي بشكل خاص، يعمل على خلق ثقافة دولية أو حالة تجانس عالمية تعمل على بروز تماثل في عادات

الاستهلاك. هذا النوع من الإعلانات التجارية أدى إلى وجود ظاهرة"الهيمنة على العقول" بمعنى أن المستهلك أينما كان، يرى أن كل شيء غربي أو أمريكي شئ مرغوب، ويمكن التفاخر به. هذه العملية عملت على نقل أنماط الحياة الأمريكية لتصبح عالمية مما أدى إلى افتتاح أسواق تجارية حيوية للاحتكارات الأمريكية.

وتشكل إعلانات الدول النامية ومنها العربية، شريحة واسعة في السوق الإعلاني الدولي الذي تسيطر عليه الولايات المتحدة الأمريكية، إذ بلغت إعلانات الهند 93 مليون دولار، وإيران 34 مليون دولار، ومصر 32 مليون دولار، والمغرب 6.6 ملايين دولار والسعودية 5 ملايين دولار عام 1971، وهذه الأرقام من الممكن أنها زادت بكثير عما كانت عليه. وفي سنة 1973، أجريت دراسات عن فروع الوكالات الإعلانية الأجنبية في هذه الدول، فوجد أن هذه الوكالات في 29 دولة من بين 46 دولة أجريت عليها الدراسة كانت ذات ملكية أجنبية، وفي الغالب أمريكية.

هذه الظاهرة الإعلانية المرعبة دفعت الكثيرين للتحذير من أن الإعلان الدولي قد يقود إلى انحراف في السلوك الاستهلاكي بحيث يقوم الأفراد بإنفاق دخولهم على منتجات يروج لها من خلال أنماط غريبة عن حياتهم. وهذا الوضع يولد بالطبع مشكلات، وانحرافات على المستويين الاقتصادي والاجتماعي. وقد لخصت إحدى الباحثات من أمريكا اللاتينية، التأثير الذي يحدثه الإعلان الدولي بقولها: "إن أهلنا ملزمون بغسل أسنانهم ثلاث مرات يومياً حتى وإن كانوا لا يملكون شيئاً ليأكلوا".

ويمكننا هنا تحديد العلاقة ما بين الإعلان كنمط اتصال، والثقافة في شكلين اثنين: علاقة الصورة والمرآة، حيث يأخذ الإعلان خواص الصورة المعكوسة بينما تأخذ الثقافة خواص المرآة التي تعكس الصورة. وبشكل أكثر وضوحاً، يقوم الإعلان بعكس المعايير الثقافية من خلال

استعمالها كإطار عام لتزويد المتلقين بمعلومات حقيقية حول المنتج المراد الإعلان عنه. أما الثانية: فهي العلاقة التبادلية حيث يقوم بالترويج للمنتج من خلال خلق أنماط جديدة من الحياة تعمل على إيصال عملية الاستهلاك إلى المستوى نفسه من الإنتاج.

والملاحظ أن غالبية الإعلانات التي تمر عبر الحدود تأخذ الطابع الثاني حيث تعمل على ترويج قيم ومعايير، وعادات اجتماعية واقتصادية تمهد لقبول المنتج المراد الإعلان عنه. وهي بذلك تشكل خطراً داهماً على الثقافات المستقبلة. وبذلك فالإعلانات التي تمر عبر الحدود لا تستهدف الترويج لسلع تجارية وحسب، بل تحمل داخلها قيماً اجتماعية وثقافية واقتصادية، تهدف إلى تغيير أنماط الحياة السائدة بحيث تتلاءم والنماذج الغربية لتعزز بذلك القيمة الاستهلاكية لدى الأفراد في المجتمعات المستقلة.

تقنية الاتصال:

تبرز هيمنة الدول الغربية في مجال تقنية الاتصال بأشكال مختلفة، بحيث أصبحت تحتكر هذا المجال بشكل شبه كامل، وتستغل كافة الطرق بما فيها العسكرية في منع أي تقدم في الدول النامية ومنها الدول العربية، والعراق خير مثال على ذلك.

تشير الإحصائيات إلى أن 97% من أجهزة التلفزيون و 87% من أجهزة الراديو و 95%، من مصادر الأخبار في الدول النامية، ومنها الدول العربية مستوردة من دول تتبنى سياسة الاقتصاد الحر. كما تشير دراسات أخرى إلى أن مساهمة الدول النامية في إجمالي إنتاج العقول الإلكترونية في العالم لا تتجاوز (5%) فقط، في حين تهيمن الدول الصناعية على النسبة المتبقية.

وتظهر دراسات أخرى أن الشركات متعددة الجنسيات ، التي تنتمي إلى عدد من الدول مثل : الولايات المتحدة الأمريكية ، وألمانيا ، واليابان، وبريطانيا ، وهولندا وفرنسا تسيطر على صناعة الإلكترونيات التي تشمل أجهزة التلفزة، وأجهزة الراديو ، والتلكس ، والتلفون ، وأجهزة الإرسال، والمسجلات وكذلك أجهزة الحاسوب المعقدة ، إذ تسيطر أكبر خمس عشرة شركة في مجال الإلكترونيات على 75% من الإنتاج الصناعي الإلكتروني العالمي في مجال أجهزة الاتصال.

وتهيمن الولايات المتحدة الأمريكية على صناعة الدوائر الالكترونية الاندماجية حيث تنتج ما نسبته 60 – 70% من إجمالي الإنتاج الدولي في هذا المجال. وتسيطر خمس شركات أمريكية فقط على إنتاج ما نسبته 80% من الإنتاج الأمريكي في مجال الدوائر الإلكترونية. والصورة ليست مختلفة في مجال الأقمار الصناعية، فالقطاع الخاص يهيمن على الإنتاج الغربي في مجال الأقمار الصناعية، إضافة إلى العمليات الاتصالية التي تجري عبر هذه الأقمار. واحتكار الغرب وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية لهذا المجال خلق العديد من المشكلات السياسية الحساسة مثل السيطرة على المعلومات الاستراتيجية ، والتعدي على السيادة الوطنية ، واستعمال المدار الجغرافي الثابت، كذلك تثير عملية البث التلفزيوني المباشر عبر الأقمار الصناعية التي تسمح للجمهور العريض بتلقي الصور التلفزيونية مباشرة عن طريق هوائيات صغيرة، مشاكل أخرى، لا نملك وسائل لحماية أنفسنا منها، فنصبح مهددين بشكل أكثر شراسة في هويتنا الثقافية ، وكذلك مصالحنا التجارية.

إضافة إلى كل ذلك، فإن الولايات المتحدة الأمريكية قد عارضت بشدة أية محاولة من الدول النامية لحجز حصتها في استعمال طيف الموجات الإذاعية ؛ لأغراض البث عبر الأقمار الصناعية لاستعمالها في المستقبل

واعتبرت الولايات المتحدة أن مثل هذه السياسة تتضمن تبذيراً للموارد ، بالإضافة إلى إعاقتها في تطوير تقنية الأقمار الصناعية.

وهنا لا بد أن نشير إلى أن أكثر من 90% من العلماء والفنيين في مجال التطوير التقنية يعملون لصالح الدول الغنية، وأن 90% من الأنشطة التي تمارس في مجال البحث العلمي لتطوير التقنية متركزة في هذه الدول. فيحين نسمع عن مقتل علماء، واختطاف آخرين يعملون في الدول الفقيرة.

والاتصال، باعتباره نشاطاً اقتصادياً، ساهم بشكل ملحوظ في تراكم رؤوس الأموال الغربية ، حيث حققت الشركات متعددة الجنسيات أرباحاً طائلة، ساهمت دول العالم الثالث بنسبة 60% منها. إذ بلغت استثمارات الشركات الأمريكية العاملة في دول العالم الثالث ما يعادل 22.5 بليوندولار سنة 1987. ولعل أبرز مثال يستشهد به على التراكم المذهل لرأسالمال الغربي بسبب هيمنته على عناصر التقنية الحديثة هو شركة الاتصالات الأمريكية (AT&T)، إذ بلغ رأسمالها سنة 1977 (36) بليوندولار ، وهذا الرقم يفوق الدخل الإجمالي الوطني لمئة وثماني عشرة دولة من الدول الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة في تلك الفترة.

وبعد، فهذا هو واقع نظام الاتصال الدولي، وهذه مظاهره المختلفة تطرح أمامنا مجموعة من التحديات التي تستهدف هوية الأمة. وهنا أجد من الضروري التذكير بأن ندوة علمية جمع لها كثير من مفكري الغرب عقدت في إحدى الجامعات الفرنسية بعد حرب 1967، كان عنوانها يطرح سؤالاً هو "هل الأمة العربية قابلة للزوال؟" أذكر في ظل ما يجري يطرح اليوم وكأننا نعيش في مرحلة التنفيذ بعد أن اكتملت مراحل التجريب.

الأمة وهويتها في خطر... وهذه هي التحديات:

على الصعيد الفكري.. أقول إن الفكر السياسي الإسلامي استطاع أن يضع حداً للجهالة والركود، واستطاع من خلال إيمانه بدوره الحضاري أن يعيد صياغة المدركات الأوروبية مقدماً لتلك الانطلاقة التي بدأها القديس توماس الإكويني، لتنتهي بحضارة عصر التحرير والتنوير. لقد استطاع الفكر الإسلامي من خلال رموزه الفكرية، الفارابي، وابن سينا، وابن رشد، وغيرهم أن يقوم بدور حضاري لا يملك لأحد تجاهله. لكن ذلك كان ممكناً في ظل فكر تكامل فيه الخطاب الفلسفي بالخطاب الديني. ماذا نرى اليوم؟ إشكالية واضحة المعالم بين ما هو فلسفي وما هو ديني. وأكثر من ذلك تمرد الخطاب الفلسفي على الخطاب الديني؛ بحيث أصبحت الهوية الإسلامية مجزأة إلى مجموعة من الهويات المتصارعة، وأصبح الفكر طيّعاً أمام الغزو الخارجي مما سهل تشويهه من خلال زرع قيم جديدة، وتشويه قيم كامنة واستغلال قيم مختلفة... ومارست وسائل الاتصال الغربية والصهيونية عملها بكل يسر في خلق فجوة عميقة بين ما هو عربي وما هو إسلامي، وبرزت ظاهرة التسميم السياسي واستعداءاتها مستهدفة تفتيت الأمة إلى مجموعة من الأمم0 ومن مظاهر عملية التسميم السياسي على سبيل ضرب أمثلة:

- تسمية الصراع العربي الإسرائيلي بأنه صراع الشرق الأوسط..هذه التسمية ميزت الفقه العربي وهي في حقيقة الأمر تسمية تفرض الكثير من التناقضات كما يقول أستاذنا الكبير الدكتور حامد ربيع رحمه الله. عبارة "الشرق الأوسط" يقصد بها في الفقه المتداول تلك المنطقة التي تمتد من مصر حتى إيران شرقاً وتركيا شمالاً. فهل إسرائيل والوجود العربي الأوضاع الحالية تمثل أزمة بالنسبة إلى إيران؟ أو أنها على العكس استطاعت أن تكون إحدى الأدوات المساندة للوجود الإيراني ولأطماعه في منطقة الخليج العربي، ولماذا نذهب بعيداً؟ أليس التخطيط الأمريكي

أساسه خلق بؤر أربع تستطيع تمزيق الوطن العربي من خلال جذب أطرافه، وبالتالي تجزئة الجسد، مستندة في هذه العملية إلى مراكز أربعة محيطة بتلك الأطراف وهي إيران، والحبشة، وإسرائيل وتركيا. أليست هذه التسمية تعني عزل شمال إفريقيا ابتداءً من ليبيا حتى المغرب، وقد جرى الفقه المتداول على تسمية تلك المنطقة "بالشرق الأدنى"، ويضيف رحمه الله: إن تسمية مشكلة الوجود العبري بأنها مشكلة الشرق الأوسط يعني خلطاً بين مستويات الصراع القصد منه خلق نوع من التمويه على الضمير العربي، وربطه بمستويات معينة تختلف عن المستويات الحقيقية التي تمثل محور الأزمة بالنسبة إلى الأمة العربية.

إن عملية التسميم السياسي التي تخضع لها المنطقة، لها أبعادها المتعددة ونماذجها المتباينة.. بعضها يزرع في المنطقة بأيد أجنبية تمارس فيه وسائل الاتصال الغربية والصهيونية دوراً بارزاً، والآخر يضخم من خلال التعايش مع الأوضاع التي تفوضها لحظات الضعف والتحلل، ولكن هناك أيضاً ما تخلقه إرادتنا الذاتية وتقاليدنا المحلية نتيجة لسطحية أولئك الذين يقودون على أصعدة مختلفة وعدم تخصصهم، ومن هذه الأصعدة المؤسسة الإعلامية.

ويضيف رحمه الله: إن عملية زرع القيم الاقتصادية وما يرتبط منها بقيم الرفاهية والرخاء أو ما نسميه بمجتمع البرجوازية الاستهلاكية المعبر عن أكثر صور الإنسانية السياسية تفعلاً واستحواذاً لم يكن سوى نموذج من نماذج التسميم السياسي يرافقه تشجيع النعرات القومية والطائفية وتشجيع الأقليات تمهيداً لإقامة دولة الإقليم التي تجمع شعوباً ترتبط بإقليم واحد، ولكون معبرة عن تكامل اقتصادي.. وهذا بالطبع يجعلنا نفهم التصريحات الجديدة التي تدعو إلى تقسيم القدس.. ونفهم أيضاً لماذا يركز زعماء حزب العمل الإسرائيلي - بيريز ورابين - على أن من واجب الدولة الإسرائيلية أن تجعل من منطق دولة الأقليات هدفاً دعائياً واتصالياً.

نحن في حقيقة الأمر نواجه تسميماً فكرياً على أصعدة مختلفة، وصل إلى حد ضرب المؤسسة الاجتماعية الأولى في عملية التنشئة الاجتماعية (الأسرة)، بحيث أصبح الدور الريادي الذي يمارس في إعداد الأجيال دوراً دونياً نعمل من داخلنا لضربه مرة تحت شعار حقوق المرأة وأخرى تحت شعار عملها. وكل ذلك بالطبع يستهدف خلق التحلل الحضاري، وإذابة التكامل القومي، والقضاء على التميز الذاتي، والاستمرارية في الهوية والعمق والارتباط التاريخي.

أما على الصعيد الثقافي،فنحن أمام كم هائل من الثقافة الجماهيرية التي تمر إلى بيوتنا. هذه الثقافة غريبة الأصول تساهم في ترويجها الأفلام والمسلسلات الأجنبية وتلك المقلدة لها على الصعيد المحلي. هذه الثقافات ذات مستوى واحد، غير أصيلة ولا غنية، غامضة ولا تحفز على الإبداع إنما تكرس التقليد، قبيحة ولا قواعد لها.

وقد أشرت عند حديثي عن مظاهر الهيمنة الاتصالية إلى أن ترويج مثل هذا النوع من الثقافة ؛ يهدف إلى خلق ثقافة استهلاكية تمهيداً لجعلنا جزءاً لا يتجزأ من النظام الرأسمالي العالمي الذي يفرض نفسه بميكافيلية فاقت التصور أو الخيال.

أما على صعيد تشويه الشخصية العربية داخلياً وخارجياً فتمارس وسائل الاتصال الغربية المهيمن عليها من الفكر الصهيوني أبشع الوسائل لضربنا معنوياً على مستوى الداخل، ورفضنا كنموذج إنساني وحضاري على مستوى الخارج.فالصور النمطية للعربي في الخارج تدور حول الإرهاب، والوحشية، والجنس، وهذه كلها صفات تخرج صاحبها من الدائرة الإنسانية إلى الدائرة الحيوانية. أما على مستوى الداخل فتستهدف رفض الإنسان العربي لذاته ، ودفعه للانخراط بما يدور حوله دون تفكير.. وإلا فكيف نفسر تساقط المثقفين العرب ودعوتهم لقبول الأمر الواقع ، أو عزوفهم عن المشاركة في المواجهة، واستسلامهم .

أما على الصعيد الإعلامي.. فالأمة العربية والإسلامية تواجه حرباً نفسية متواصلة.. يقابلها على الجانب العربي والإسلامي مظهران مماثلان هما:

أولاً: عدم فهم لأبعاد المعركة والتحدي.. فالمعركة كما يقول د.حامد ربيع :- رحمه الله- ليست اقتطاع جزء من الأرض، والتحدي ليس مجرد مشكلة منع الوحدة، وإنما السعي نحو تفتيت الحضارة العربية الإسلامية من خلال ثلاثة أبعاد تكمل بعضها بعضاً:

- إرادة عربية إسلامية يسعى الغرب والصهيونية لتحطيمها.
- خصم تريد أن تحتويه وتحركه لخدمة أهدافها.
- وحضارة تريد أن تتفتت مقوماتها تمهيداً لعملية الابتلاع الكلية والشاملة.

ثانياً: فهم خاطئ لطبيعة العملية الإعلامية ، وأدواتها ، ورسم استراتيجياتها، ويتمثل ذلك بغياب الطاقات الإعلامية المحترفة والمؤهلة، والتعامل مع العملية الإعلامية بصورة عفوية ، وسطحية مع إغفال واضح للأبعاد الحضارية في العمليات الاتصالية ، يرافقه حالة لا مبالاة واضحة في إعطاء العمل الإعلامي وزنه الحقيقي.

أود هنا، وفي نهاية هذه المحاضرة، أن أذكّر بأن ندوة علمية جُمع لها عدد كبير من مفكري الغرب، عقدت في إحدى الجامعات الغربية بعد هزيمة 1967، كان المحور الرئيس الذي ناقشته هو محاولة للإجابة عن السؤال التالي:

هل الأمة العربية والإسلامية قابلة للزوال؟.

الندوة الثانية

هوية الأمة العربية الإسلامية في مواجهة
التحديات السياسية والثقافية والحضارية

أدارها: الأستاذ الدكتور عبدالكريم خليفة، رئيس المجمع

وشارك فيها:

الأستاذ الدكتور عبدالعزيز الدوري، عضو المجمع

الأستاذ الدكتور إبراهيم زيد الكيلاني، عضو المجمع

السبت 8 ذو القعدة 1412 هـ - 9 أيار 1992م

كلمة

الأستاذ الدكتور عبدالكريم خليفة

رئيس المجمع

أيها الأخوة والأخوات،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فإنه من دواعي سروري أن أقدم لكم هذه الندوة التي تطرح قضايا مهمة، إن لم تكن أهم التحديات التي تواجهها أمتنا العربية الإسلامية في الوقت الحاضر. وإن الغرض من هذه الندوة، لا يتعدى إثارة الفكر وطرح القضايا التي تواجهها أمتنا العربية الإسلامية في أزمتها الحاضرة التي باتت تمسُّ هويتها ومقومات وجودها، وتثير الغبار من خلال (عاصفة الصحراء)، حول صدق الانتماء لهذه الأمة العظيمة التي تضرب جذورها بعيدة في أعماق التاريخ. وقد كرمها الله سبحانه وتعالى، فأنزل القرآن الكريم وحياً على سيد المرسلين، بلسان عربي مبين، فحملت هذه الأمة لواء الهداية إلى الناس كافة. فكان الإسلام بتعاليمه السماوية، وقيمه الإنسانية السامية هو الذي حدد هوية أمتنا، وحفظ القرآن الكريم اللغة العربية، لغة الوحي. فهي لغة خالدة بخلود هذا الكتاب العزيز. وقد تكفل سبحانه وتعالى بحفظه، إذ يقول عز من قائل في كتابه الكريم: ((إنّا نَحْنُ نَزَّلنا الذِكْرَ وإنّا لهُ لحَافظِونَ)). سورة الحجر الآية(9).

فالقرآن الكريم هو الذي حفظ اللغة العربية، وبالتالي حفظ وجود أمة عربية، ولولا هذا الكتاب العزيز لجرى للغة العربية ما جرى للغات الأخرى التي بادت، أو تشعبت في لغات أخرى متباينة... فالعروبة والإسلام هما المادة الأصيلة التي كونت الذات العربية الإسلامية على مر العصور حتى أيامنا هذه. فقد خرج العرب المسلمون مجاهدين في سبيل

الله، يحملون لواء الهداية لبني البشر كافة. (فالناس سواسية كأسنان المشط)، ولا فوق بين أسود وأبيض وأصفر، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. فنشأت أمة عربية إسلامية، وتحددت نظرتها إلى العلم والحضارة والكون والإنسان من خلال تعاليم القرآن الكريم، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم. فأحلّ الإسلام الإنسان مكانة سامية، وجعل العقل والفكر أهم ما يميز الإنسان من بقية المخلوقات. وجعل طلب العلم والمعرفة فريضة على كل مسلم ومسلمة... وأصبح البحث عن المعرفة تسبيحاً لله في ملكوته.. فالعالم الباحث عن المعرفة في مختبره وبين آلاته وأجهزته.. وفي مكتبته... يسبح الله في ملكوته.. فالبحث عن المعرفة عبادة... هذا هو أيها السادة، جوهر حضارتنا العربية الإسلامية، بلسانها العربي ونظرتها الإنسانية الشاملة، واحترامها العقل وحثها على طلب العلم والبحث عن المعرفة...

إن هذه المقومات جميعها قد بنت عبر القرون الهوية العربية الإسلامية، وهي مرتبطة بنواميس هذا الكون، التي سخّرها سبحانه وتعالى لحفظ كتابه العزيز ولغته العربية. فالقوانين، والنواميس التي تحكم الحوادث الإنسانية والمجتمعات البشرية تتم بمعزل عما يحب الإنسان ويكره، وإن الإرادة وترجمتها إلى الأفعال قد تعيق مسار الأحداث، وتشوهها، ولكنها لا تستطيع أن تلغي طبيعة هذه القوانين.

فالهوية العربية الإسلامية ، ليست قضية اختيار ، يمكن أن يتبرأ منها حكام قطر من الأقطار ، أو أن تلغيها مؤسسات استعمارية طامعة أو مسؤولون حاقدون على العروبة والإسلام. ولا أدل على ذلك من البحوث التي نظمت في أوروبا وفي أمريكا حول انتهاء وجود ما يسمى "أمة عربية " أو "هوية عربية "... وقد حدث هذا ويحدث في كل مرة تتعرض فيها أمتنا إلى الغزو، والحملات الاستعمارية.

ولا أذيع سراً إذا قلت، لقد وجدت لجنة المحاضرات والندوات في مجمع اللغة العربية الأردني أن الأمة العربية الإسلامية تجابه تحديات شاملة في العقيدة والإعلام والتقنيات والثقافة والحضارة والسياسة.. فقد اجتمعت اللجنة لاختيار إطار عام للموسم الثقافي العاشر لهذا العام..فرأت أن "عاصفة الصحراء " قد تركت آثاراً مدمرة في كيان أمتنا العربية الإسلامية.. وإنّ النظرة العلمية العميقة تدلنا على أن هذا الزلزال، قد أظهر على السطح ما كان مستوراً بأقنعة مختلفة... فقد طفت على السطح ما أحكمت التخطيط له الدوائر الاستعمارية وصنائعها من أصحاب المصالح والمطامح الإقليمية والقطرية والطائفية... وقد امتدت هذه السياسات لتتجاوز استنزاف الموارد الاقتصادية والنفطية إلى استنزاف الفكر والمفكرين، وتسخيرهم في متاهات الخلاف، لإذكاء نار الصراعات بأشكالها المختلفة، وإنَّ من يمعن النظر في هذا كله، يخلص إلى أن ذلك كله يتم لخدمة أعداء الأمة والنيل من مصالحها العليا ومقومات وجودها.

ونحن إذا أعدنا النظر، ومن خلال الغبار الكثيف الذي أثارته "عاصفة الصحراء " فيما آل إليه وضع أمتنا العربية الإسلامية، منذ الحرب العالمية الأولى حتى الوقت الحاضر ، نخلص إلى أن التجزئة والتخلف والوحدة والغزو الصهيوني الاستعماري، هي أهم المشكلات التي تجابهها أمتنا العربية الإسلامية في وضعها الحاضر... فقد انتهت الحرب العالمية الأولى بتجزئة الوطن العربي، إلى دويلات وإمارات ومشيخات تحت النفوذ الأجنبي ، وبالتمهيد للغزو الاستعماري اليهودي لفلسطين..وانتهت الحرب العالمية الثانية سنة 1945م، وبدأت حركات التحرر تأخذ طريقها في جميع هذه الأقطار.. وكان المواطن العربي يعتقد إذ ذاك أن الاستقلال والتحرر يعني الوحدة... ومضت السنون... ويحقق الغزو الصهيوني الاستعماري أهدافه... وتنهار شعارات التقليد الأعمى وتسقط

الأقنعة.. ويمعن الاستعمار بتحالفه مع الصهيونية العالمية، في سياسة التجزئة وإثارة الصراعات الداخلية واستنزاف الفكر والمفكرين بعد استنزاف الموارد الاقتصادية والقطرية..

فإلى جانب مشكلة التجزئة انهارت جميع مشاريع الوحدة، من الوحدة المصرية السورية في زمن عبدالناصر إلى الوحدة الهاشمية بين الأردن والعراق... إلى وحدة الضفتين... والاتحاد العربي الصوري بين مصر والأردن والعراق واليمن، فقد انهار هذا الاتحاد!! منذ اللحظات الأولى لهبوب "عاصفة الصحراء".

وإلى جانب مشكلة "التخلف" العلمي والتقني، تطفو أزمة الفكر العربي الإسلامي وربما لا نعدو الصواب إذا قلنا إنها أزمة بين التقليد والإبداع، وبين النظرية والتطبيق، وبين الفكر والسياسة.

وإلى جانب مشكلة "الوحدة" أيضاً تطفو على السطح قضية اللغة العربية. فالعربية في الوقت الحاضر تشكل العنصر الوحيد الذي ما زال يجمع الدول العربية، ومن هنا تمتد الأيدي الخفية والظاهرة إلى إقصاء اللغة العربية عن دورها العلمي والقومي في الجامعات العربية، ومؤسسات البحث العلمي.. ففي إبعاد اللغة العربية عن سيادتها في أوطانها، تثبيت للتجزئة، وإدامة للقطرية، والتبعية السياسية والفكرية.. وإقصاء العربية عن أن تكون لغة التدريس الجامعي، والبحث العلمي في الجامعات العربية، والمؤسسات العلمية هو تثبيت لحالة التخلف العلمي والتقني، وإدامة لحالة التبعية والتقليد الأجوف.

وإلى جانب ذلك كله، تتجدد الحملات الاستعمارية الغازية في بلاد الشام مستهدفة فلسطين في مراحلها الأولى، متمثلة بالاستعمار الصهيوني الاستيطاني، وفي الجزيرة العربية ومناطق الخليج، مستهدفة ثرواتها النفطية، ومتمثلة بشركات الاحتكار العالمية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية.

وإلى جانب هذه الحملات الاستعمارية العسكرية والاقتصادية، يشن هذا الحلف الاستعماري الصهيوني حرباً تستهدف المقومات الأساسية للفكر العربي الإسلامي وثقافته وحضارته.

وخلاصة القول ، فإن التحديات التي تواجهها أمتنا العربية الإسلامية في جميع مناحي الحياة ، الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، هذه التحديات تقتضي بالضرورة ، البحث في إعادة بناء الذات العربية الإسلامية التي نسعى لبنائها، وتحديد سماتها، وتوطيد دعائم علاقاتها بالشعوب الإسلامية ، وتفتحها الإنساني على كل ما هو حق وخير وعدل. ولن يتملنا ذلك إلا بتوطيد دعائم "حرية الفكر، واحترام حقوق الإنسان" لكي يستطيع المفكر العربي على مختلف اتجاهاته أن يبدع، وأن يضيف إضافات أصيلة وجديدة، إلى فكر الأمة العربية الإسلامية وثقافتها ومنجزاتها الحضارية، ومن أجل استعادة أمتنا دورها الحضاري في بناء حضارة إنسانية متقدمة ومزدهرة.

كلمة

الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري

عضو المجمع

تواجه الأمة العربية في الفترة المعاصرة تحديات خارجية وتحديات داخلية.

وقد نبدأ بالغزو الغربي لهذه الأمة لنشير إلى ما مثله من تحد حضاري وتهديد للهوية، وإلى استعمار رافقه تمزيق البلاد ومحاولة للاستحواذ على الثروات وسعي لفرض التبعية.

وقد نصل إلى أزمة الخليج وما أحدثته من دمار وتمزق. حدث هذا والأمة في حالة تخلف، تسعى لبناء نفسها، والغرب في تقدم متسارع، كل هذا معروف.

وقد نشير إلى محاولات للتحديث والنهضة، بدءاً بتحديث الجيش والسلاح، إلى إنشاء المدارس وتحديث التعليم لمواجهة الغرب بأسلحته دون استيعاب لعلمه، وإحداث ازدواجية فكرية وثقافية.

كما قد نشير إلى السعي للإحياء وللنهضة بحركات إسلامية سلفية أو تحديثية إصلاحية، أو أصولية (كما يقال) أو عربية قومية.

ثم نلتفت فنرى من بدأ في هذا الاتجاه لبناء المجتمع بعدنا، مثلا اليابان، قد تجاوز التخلف وامتلك عناصر القوة. وقد يكون أدرك سبيل تطويع العلم قبل أن ندركه، ولكننا نراه وقد امتد به الزمن في تحركه في حين تألب الغرب علينا في بداية المسيرة وبذل كل جهد ليقطع الطريق أو ليحرفه. وإذا كان غيرنا حافظ على وحدته، كان علينا أن نسعى في سبيل الوحدة لنجد الغرب يقف في وجهنا كلما قامت حركة بيننا تتجه نحو الوحدة لقرن أو أكثر إسلامية المنحى أو عربية الاتجاه.

كما ساند إسرائيل لتحدث نزفاً دائماً في القوى والثروة، ولتسهم فيكيل الضربات لبوادر التحرك والنهضة ، ولتؤكد التمزق.

ولا أريد أن أنسب ما نعاني إلى التحديات الخارجية وحدها ، فلديناتحدي التخلف ، والتجزئة، وغياب المؤسسات، وانعدام الحرية وغيرها،ولكنني أريد تبيّن الطريق.

وهبّت رياح التغيير في الغرب، اتجاه نحو الإصلاح في طريقالديم قراطية في روسيا ليمتد إلى الكتلة الشرقية بكاملها، وتحرك في طريقالكيانات الإثنية أو القومية ، واتجاه نحو تفرد قوة عظمى في الساحةالدولية. وكان تساؤل: هل نحن خارج الإطار العالمي أو سنتحرك فيوجهة مصير نختاره، أو ننتظر أن يغيّر غيرُنا وضعنا؟

وجاءت أزمة الخليج لتعصف. وكان واضحاً أن ما يسمى بالنظاما لعربي فقد فاعليته وتخطته الأحداث ، وأنه بحاجة لإعادة النظر، أولإقامة نظام عربي جديد.

جاءت أزمة الخليج تهز الأمة بعنف، ولن نسأل إن كانت نتيجةلانقسام البلاد العربية ولعجز النظام العربي، أو كانت سبباً لتدهورالنظام العربي.

ولكنها تمثلت في كسر بوادر الإرادة العربية المستقلة، وفي السيطرة علىالثروة الطبيعية الأساس (النفط)، وفي ضرب أي تطبيع للتقانة والانتقالمن نمط الاستهلاك في العلم إلى الاتجاه نحو المشاركة فيه ، وإلى تعميقالانقسامات لتتجاوز الحكومات والأنظمة إلى المثقفين، وإلى تحويل تجربةالمجتمع العربي إلى صورة جوفاء... كما كشفت عن عجز الجامعةالعربية ، وانتهت إلى التشكيك بوجود الأمة إن لم نقل الهوية. ولكنها فيالوقت نفسه أثارت فكرة التضامن العربي والإسلامي على المستوى الشعبي، وكشفت عن وحدة الشعور العربيالإسلاميفي المغرب والمشرق، وفتحت الباب بشكل أوسع أمام حوار أكبر بين النخبالإسلامية والقومية.

يرى البعض، أن الدور الحضاري للأمة قد يتحدد بالتحديات التيتتعرض لها والرد على هذه التحديات.
والتحدي الأكبر في العصر الحديث كان ولا يزال يتمثل في المواجهة معالغرب، في الماضي القريبوالحاضر.
تمثل التحدي أولاً في الغزو الغربي الاستعماري الذي بدأ بالأطراف ثماتجه إلى المركز، ورافقته التجزئة السياسية والعمل على فرض التبعيةالاقتصادية ، وكان الصراع لتحرير الأوطان ، ولتحرير الإرادة

العربيةوالإسلامية، ولتجاوز التبعية، ولكننا جوبهنا بركيزة استعما رية استيطانيةتوسعية في قلب الأمة حتى صارت التحدي الأخطر.

وانتقلنا من الاستعمار التقليدي إل ى الجديد الذي يسخر البشر والمواردلخدمة مصالحه ويربط الاقتصاد به ، وكانت الولايات المتحدة طليعتهورائدة.

وبعد انهيار الشيوعية ، وما رافق حرب الخليج من تعب ئة غربية ، بدتبوادر التحول إلى وضع جديد ، تتفود فيهبالعالم قوة عظمى هي الولاياتالمتحدة، تنادي بالشرعية تحت مظلة الأمم المتحدة وبحقوق الإنسانوبالدعوة للحلول السلمية للمشكلات الإقليمية، لتفرض السلام الذيتريد والذي يخدم مصالحها بالقوة أو بغيرها، ولتتخذ ما يناسبها منمقاييس لا تخلو من ازدواجية ومن غياب القيم في التعامل الدولي.

ووجدت الأمة نفسها في حالة ضعف وفرقة ، إنْ لم نقل حالة عجزمن مواجهة مشكلا تها الرئيسية، وتركت الأبواب مفتوحة للتدخلوالهيمنة الخارجية.

إن هذا الوضع يتطلب جهوداً كبيرة للارتقاء إلى مستوى التحديوللإصلاح ولتخطي الخلافات مع السعي لمزيد من التلاحم بين البلادالعربية.
وما يلاحظ في النظام العربي توزع عنا صر القوة بشكل يح ول دونقدرة أي قطر عربي بم فرده على قيادة النظام العربي،فتعدد القوىالتنافس بين بعضها يمنع المقدرة على المواجهة.

والجامعة العربية التي أقيمت لتنظيم التعاون بين البلاد العربية وتنسيقهفي إطار المحا فظة على سيادتها لم تتمكن أو تُمكّن من الجمع والتوحيد،وفقدت مجال الفاعلية الذي كان لها.

ومن هنا ظهرت أزمة النظام العربي في أواخر ال ثمانينيات ، أو اختلالالعلاقات العربية الأمر الذي أدى إلى غياب إرادة عربية واحدة. وقوّىالا تج اه إلى تأكيد الدولة القطرية ، وتغليب المصالح القط رية والجزئية علىالعربية.

ولكن الدولة القطرية في عصر التكتلات أو القوة الطاغية لا توحي بالأمن أو الثقة (وقد ثبت فشلها). لذا هُدّد الأمن العربي من أكثر مصدر.

هذا إلى التقلص المتزايد لاستقلالية النظام العربي (قدرته على الحركة إزاء النظام الدولي). وكان من أثر الثروة النفطية (المقترنة بالقطرية) مزيد من دمج اقتصاد عدد من الأقطار العربية بالنظام الرأسمالي العالمي، وتعاظم المصالح الاقتصادية الغربية في البلاد النفطية.

كل هذا يتطلب التفكير بتكوين نظام جديد في مستوى التحديات. التحدي الرئيسي هنا هو التجزئة المضادة للاتجاهات الموحدة. وقد وقف الغرب دائماً في وجه المحاولات الوحدوية، تحت راية إسلامية أو عربية. وكل حركة نحو الوحدة قاومها الغرب في الماضي والحاضر. وقد تلتقي المصالح الإقليمية مع وجهة المصالح الغربية عمداً أو بدون عمد كما حصل غير مرة، مما يزيد في خطر التجزئة.

وفي فترات الأزمات الكبرى، يظهر اتجاه الشعوب الوحدوي بصورة عفوية.

إن التهديد الأخطر هو إسرائيل، التي تسعى إلى تقسيم المنطقة العربية وبلقنتها.

وسعت إسرائيل من مفهومها الأمني لكي يشمل منطقة الشرق الأوسط إلى باكستان شرقاً، وأوغندا جنوباً (الهجوم على المفاعل النووي العراقي، حزيران 1981، والغارة على تونس في أول تشرين 1986 م). الخطر العسكري الإسرائيلي استهدف تحقيق التفوق العددي والنوعي على أي قطر عربي على حدة، (ومن هنا أهمية التجزئة لها) مع التفرد (الآن) في المجال النووي، وتقدم واضح في مجال الصناعة العسكرية.

وإسرائيل مشروع لم تكتمل ملامحه النهائية بعد برأي أصحابه، إنه مشروع قابل للامتداد والتوسع والسيطرة. وهي قبل دخولها مرحلة التفاوض، وبعدها تتطلع إلى تكثيف الاستيطان في الأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة عام 1967م، لتكريس الواقع الذي تريده، فيما يفترض أن يكون فترة (انتقالية)، فلا يبقى على أرض الواقع ما يتفاوض عليه عملياً. كما أنها تعمل على متابعة الهجرة لليهود السوفييت وتنشيطها.

وفي هذا الوضع فإن قدرة الطرف العربي على التأثير على العلاقات الأمريكية الإسرائيلية ضئيلة.

ولكن الانتفاضة في الضفة الغربية ، وقطاع غزة من فلسطين المحتلة(بدأت في كانون الأول 1987)، تمثل تحدياً جديداً وغير تقليدي لإسرائيل، مما يبين أهمية دعمها (التلاحم معها وتصعيدها). وعلى كلوب صرف النظر عما يجري للتسوية،فإن الخطر الإسرائيلي باق وتهديدهم مستمر.

لست بصدد المبالغة في تصوير الأخطار ،أو في كشف حالة الضعف العربي، بل أقول إننا بحاجة لإعادة نظر في التفكير والنظرة للمستقبل.

إن التحدي الأول للأمة هو تحدي الوحدة أمام التجزئة. فالوطن العربي يتعرض كمجتمع، وثقافة، وحضارة، لمواجهة شاملة، ولن

يستطيع تجاوز الأزمات أو تحرير إرادته إن لم ينجح في العمل باتجاهالوحدة بشكل أو بآخر.

هذا يثير تساؤلات: هل الخيار بين الوحدة/ الاتحاد، وعدمها، أوأن هناك خطوات ومراحل يمكن اتخاذها مثل تشجيع أية خطواتتوحيدية أو مؤسسات و مخططات عربية ؟ كيف تعالج مسألة الانتماءالمزدوج بين القطري والعربي؟ هل يدخل عنصر القوة في مجال العمل الوحدوي ؟ هل يتجه العمل الوحدوي إلى الجماهير لدعمه ؟ وهل يكونالأسلوب الديمقراطي سبيل إقرار الوحدة/ الاتحاد؟.

ألم تكشف الجماهير بصورة عفوية في الأزمات عن تحدي الهيمنةالاستعمارية أميركية وغربية ؟ ألم تتخذ وجهة وحدوية وتناصر استقلالالإرادة العربية ؟.

كيف تعالج مشكلة الأقليات والجماعات الإثنية (البشرية) المختلفة فيالوطن العربي ؟ كيف يمكن تجاهل الاختلاف في الظواهر الاجتماعيةوالاقتصادية السائدة في الوطن العربي ؟ كيف نتعامل مع الاختلاف بينأسسشرعية النظم السياسية العربية القائمة ؟.

ألا توجد حاجة لوضع رؤية متكاملة أو شبه ذلك بالنسبة إلى موضوعالوحدة / الاتحاد من حيث الاتجاه والمؤسسات ، وربما الآلية؟ ألا نفحصجهودنا السابقة في هذا الاتجاه لنتبين الثغرات ، ولننقد الفرضيات ولنقوّمالخطوات، ونقف على أرضية أصلب للمستقبل؟.

قد يشار إلى خطوات على الطريق، مثل إقامة نوع من الاتحاداتالإقليمية، أو تعزيز الجامعة العربية و محاولة إصلاح نظامها لتكون أداةتوحيد لا أداة تحييد، أو إقامة تنظيمات ومؤسسات عربية عامة، تبدأمتواضعة و فعالة، ثم ألا يعتمد كل هذا على توافر الإرادة السياسيةالفاعلة ؟.

ألا نلاحظ هنا غياب القاعدة الشعبية للتضامن العربي ، إذ الشعوبالعربية هي بحق البعد الغائب في تجارب التضامن والتكامل العربي؟.

ألا نلاحظ - كما حصل أثناء الأزمة- أنه لم تسلم مجموعة أو تيارسياسي من تحليلات ومواقف متناقضة داخل الكيان السياسي أو الحزبالواحد؟ ألم تظهر الأحداث انعدام الرؤية المستقبلية الجادة مع انفصام عنالواقع ؟.

وإذا أريد للعمل الوحدوي ألا يكون مشروعافردياً ، بل مشروعاً يستند إلى القواعد الشعبية وإلى إسناد الجماهير، فلنتذكر أن الشعوبليست لديها مؤسسات للتعبير عن تطلعاتها، إذ كانت تكتفي عادةبالتعبير العفوي عن وجهتها ورغباتها.

وهذا يأخذنا إلى التحدي السياسي الآخر، تحدي الديمقراطية أوالشورى ، بما يتطلبه ذلك من توفير الحريات واحترام حقوق الإنسان.

لقد دلت الخبرات والتجارب على أن الديمقراطية يجب أن تأتي فيمقدمة الأولويات. إن التاريخ المعاصر للمنطقة يؤكد أن معظم الأزماتفيها - بما فيها أزمة الخليج- تتصل بغياب الديمقراطية. ففي نطاق أنظمةسلطوية يتمتع فيها الحاكم بصلاحيات غير محدودة تسمح له باتخاذقرارات مستعجلة أو خطيرة قد لا تكون دائماً في صالح الأمة.

وفي هذه الحالة تبقى الأنظمة ضعيفة بنيوياً وعاجزة عن مجابهةالتحديات، وبخاصة الخارجية دون مشاركة الشعب السياسية.

إن المستقبل للشعوب الحرة، وحرية الإنسانضرورية لتفجير طاقاته.وشروط الحرية هو طرد المحتل الأجنبي،ثم إن الحرية مع التعدديةالسياسية، وحرية المجتمع المدني في تنظيم نفسه.

فلا بد من الاعتراف بحقوق الإنسان وبحرياته السياسية حقه في

التعبير عن آرائه، ومعتقداته بمختلف الوسائل وحقه في المعرفة، وفيتشكيل الأحزاب والمنظمات والجمعيات ، وحقه في المساواة ، وحقه فيالمشاركة السياسية. والديمقراطية أو الشورى لا تكون دون مؤسسات تجسد الفكر السياسي وتنتقل بالديمقراطية/ الشورى من إطار النظرية إلى الواقع الممارسة.

ولدينا في تاريخنا الكثير من الفكر المتميز في الشورى، ولكن المشكلةالتاريخية عندنا تتصل بغياب المؤسسات السياسية، ولا بد من معالجة هذهالثغرة إن أردنا أن يكون للفكر معنى.

إن التحدي الأكبر للثقافة العربية الإسلامية، وللهوية يتمثل فيالمواجهة مع الحضارة الغربية وما يتصل بذلك من أثار.

وكان في طليعة هموم الأمة بعد موجة الغزو الثقافي والحضاري الغربيمسألة الهوية ، وما قد تتعرض له من تحريف أو طمس، والعمل علىالحفاظ عليها وتثبيتها.

وواضح أن الغرب - أوروبا وأمريكا- يتجه إلى طمس الشخصيةالثقافية للأمة وقيمها، وإلى التحدث عن ثقافة واحدة هي الغربية، وإلىالترويج لثقافة عالمية واحدة انتهت إليها البشرية.

وكان السؤال ما الموقف من الحضارة والثقافة الغربية ؟

ابتداءًالمشكلة في الأساس، كما عرضت، تخلف العرب والمسلمينتخلفاًواضحاً عن إنجازات الغرب في الفكر ، في العلم والتكنولوجيا، فيالمؤسسات، بل ذهب بعضهم إلى الإشارة إلى قواعد السلوك ونمطالتفكير ، وليس في نظر هؤلاء من مشكلات لدى الأمة ما لا يحله العلموالعقلانية والتكنولوجيا. هل الحل إذن في تقليد جديد؟.

رأى آخرون أن المشكلة تتلخص في إهمال التراث وفي تخلي المسلمينعن أصول الدين ومبادئ وقواعده وهي صالحة للتطبيق أبداً، وفي اتباعهم

لفكر مستورد غريب عليهم ول ثقافة بعيدة عنهم. هل الحل إذ ن في العودةإلى الأ صول أو إلى فتوة الإسلام الأولى؟.

وبين الاتجاهين مسلك توفيقي يرى الالتفات إلى التراث مع الأخذ منخير ما جاء به الغرب. ويأتي السؤال: هل يمكن التجزئة في الثقافةوالفكر؟ وهل يمكن فصل العلم والتكنولوجيا عن نواحي الفكر الأخربل عن القيم والمثل؟.

لن ندخل في جدل استمر طويلاً. ولكن هل يمكن البناء الثقافي دونقاعدة ثقافية أصيلة ؟ هل يمكن استيعاب التكنولوجيا دون تطبيع؟ هليستطيع التحرك والتقدم في الثقافة من لم تكن له هوية؟ هذه قضاياتستحق كل عناية وتفحص.

ولكن ما أسس هوية الأمة أو مقوماتها؟ أمامنا أكثر من اجتهاد. بينمن يرى الإجابة في الإسلام عقيدة ونظاماً للحياة. وبين من يرى الإجابةفي العربية لغة وثقافة، وفي التراث.

وفي مواجهتنا للتحديات الخارجية والداخلية في العصور الحديثة وقبلهاكانت الهوية تتحد بالعربية لغة وثقافة وبالإسلام قاعدة ومحتوى.

هذا ويلاحظ أن جماهير الأمة العربية تحفظ في وجدانها ه ذا الترابط بينالإسلام والعربية كما يتبين في فترات التأزم الحاد أو الشعور بالأخطار التيتهدد الأمة.

ويرتبط بهذا مباشرة التأكيد على أهمية العلاقات بين الوطن العربيودول الجوار الإسلامية لانتمائها جميعاً إلى دائرة العقيدة والحضارةالإسلامية. والعلاقات القائمة معها الآن تمثل تحدياًجانبياً، له جذورتاريخية واختلافات حديثة. ويجدر بنا التأكيد على الدائرة الإسلامية لاتخاذموقف يعزز وضع الجهتين.

عقدة الخلافات العربية التركية، المسؤولية عن انهيار الدولة العثمانية، والاسكندرونة، ومياه الفرات ، والاتجاه الغربي. عقد الخلافات الإيرانية العراقية، نظرة كل طرف إلى دور الأخر في التاريخ، مشاكل الحدود وشط العرب والجزر العربية الثلاث.

لا تعدو هذه الملاحظات أن تكون مؤشرات عامة. ولكن هذا المجال لا يزال تحيطه عموميات ويعوزه الوضوح، ويتطلب جهداً مركزاً ومتصلاً يتعدى المفاهيم العامة والشعارات.

ويكفي أن نشير هنا إلى اللغة العربية والتراث بملاحظات عامة:

فالعربية ليست مجرد وعاء للثقافة والتراث، على أهمية ذلك وخطورته، بل هي أيضاً أسلوب تفكير ، ووسيلة اتصال واستمرار لوجود الأمة. واللغة تعني نظام القيم الجماعية والفردية من خلال تعابيرها ومفرداتها.

والعربية تعبّر عن المستوى الفكري والثقافي لأهلها (وهي بعد وقبل رابطة أولى بين أهلها). وهي التي ترسم إطار الهوية العربية.

والعربية لغة الثقافة، والثقافة ليست أدباً وحسب كما يفترض ، بل تشمل حقول المعرفة بما فيها العلوم ، ويجب تأكيد هذه الناحية لئلا تكون ثقافة عرجاء. ومن هنا كان لازماً التدريس والبحث والكتابة في كافة الحقول بالعربية.

لقد ارتفعت الدعوة للتدريس بالعربية في جميع المراحل، بوصفها رابطة بين أبناء الأمة وأداة تربوية فعالة في ترسيخ قيمها ومعالم شخصيتها ولتسهم في تعميق وحدة الفكر بين أبنائها.

وإذا كان القرار السياسي لازماً لتعميم التعليم في مراحله المختلفة بالعربية ، فيجب أن يتحمل أعضاء هيئة التدريس مسؤوليتهم بالمبادرة إلى التدريس بالعربية دون انتظار القرار ، وربما ساعد ذلك على اتخاذه في وقت أقرب.

ويجب أن يكون البحث والكتابة بالعربية، فالبحث أساس للتقدم العلمي كما هو لإغناء الثقافة. وبعد هذا فلن نتمكن من الإبداع والمساهمة والتقدم العلمي إن لم نكتب أبحاثنا بالعربية. ويجب أن تؤكد الجامعات ومراكز البحوث استعمال العربية في الأبحاث، فالتحدي الأكبر الذي يواجهنا في العلم والتكنولوجيا هو في هذا المجال.

وبعد هذا يجب التوسع في نشر العربية الفصيحة وإيجاد الوسائل اللازمة لذلك، لأن اللهجات العامية تبعد العامة عن الفكر وتضعف الصلة بين قادة الفكر والجماهير، وقد تعني الانقطاع عن جذور الثقافة وأصالتها، كما أنها تساعد على الفرقة بين أبناء البلاد العربية.

والتراث في صلب هوية الأمة، وفيه مقومات شخصيتها. هل لدينا مفهوم واحد للتراث؟ قد يفهم بالتراث كل نتاج المسيرة التاريخية للأمة من علوم (عربية، وإسلامية، وعلوم الأوائل)، وصناعات وفنون وقيم، وقد يفهم به الإنتاج الفكري لأمة أو جانب منه كأن يشار إلى الأدب أو الفقه والتشريع.

وقد يفكر بما هو حي من التراث أو الجوانب التي لا تزال تؤثر في حياتنا ونظرتنا. كل هذا يتطلب موقفاً ونظرة واضحة إلى التراث.

والحديث عن التراث يتصل بالاتجاه السائد عن (الأصالة) و(المعاصرة) أو الجمع بين ما يفهم بـ (التراث) وما يفهم بـ (المعاصرة).

وهذا يثير نقطة أخرى: كيف نتعامل مع التراث ؟ هل المراد إحياء التراث؟ إن هذا ييسر التعرف إلى التراث ولكنه يمثل مرحلة أولية. ولابد بعد ذلك من تحليله وفهمه إذا أريد الإفادة منه في حياة الأمة.

وهنا نتساءل - هل نبحث في التراث لتسويغ مفاهيم وأمور وقيم حديثة بشكل انتقائي لإضفاء شرعية عليها؟ وهل يمكن أن تكون لنا أصالة عن هذا الطريق. أو نبحث في التراث عما يمكن أن يفيد في مواجهة مشاكلنا وحاجاتنا لصلته بتكويننا الحضاري والخلقي والنفسي

والفني؟ قد يكون ذلك بصورة إيجابية أو يكون لتلافي سلبيات فشل (الشورى والمؤسسات).

ثم هل ندخل التراث في تكويننا الثقافي وفي بناء الشخصية، وذلك بتمثل التراث أو جوانب منه وتقديمها للناشئة ولغيرهم؟ إن هذه ناحية مهمة. يكون ذلك بعرض نصوص وقراءات من الإنتاج الفكري والأدبي المتميز للأمة.

والتراث في فترات التجزئة له أهمية خاصة، ففي تمثله والاستناد إليه تأكيد على المشترك الذي يعزز الاتجاه للوحدة. التراث يمكن أن يكون عامل توجيه ثقافي ونفسي وأخلاقي وفني.

وبعد فالتعرف إلى إنجاز الأمة الحضاري في فترات ازدهارها، في مثل فترات القلق أو الضعف، فيه بعث للهمم واستعادة الثقة وإثارة للطموح، على أن يكون ذلك على أساس من الوعي والأمانة.

ويحسن أن يلاحظ أن العناية بالتراث يجب أن تكون بعيدة عن التعصب أو الانغلاق أو التقليد. إنّ أزهى فترات الحضارة العربية الإسلامية فترات الانفتاح والحيوية.

كلمة

الأستاذ الدكتور إبراهيم زيد الكيلاني

عضو المجمع

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الأمين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أيها العلماء الأجلاء، أيها الأخوة الكرام.

يسعدني أن أشارك، في هذه الندوة، عَلميْن من أعلام الأدب والتاريخ، وأن ألقي الضوء على بعض التحديات الثقافية والسياسية التي تواجهها أمتنا من خلال النقاط التالية:

١ - بيان المقصود بالتحديات.
٢ - كيف وجه القرآن الكريم هذه الأمة لمواجهة هذه التحديات.
٣ - كيف وجه النبي العظيم صلى الله عليه وسلم أمته لمواجهتها.
٤ - التحديات في نظر ساسة الغرب فكراً وسياسة وخططاً.

أما المقصود بالتحديات فهو العقبات التي لا بد من اجتيازها، والأخطار التي لا بد من دفعها والأعمال التي لا بد من القيام بها للحفاظ على وجود الأمة، وتحقيق أهدافها، ودفع أسباب الهلاك عنها. والأمة العربية والإسلامية تملك قوة العقيدة والدين الذي يوحد بين أبنائها ثقافة وحضارة وتاريخاً، وتملك قوة العقيدة التي تبعث في أبنائها روح الجهاد والصبر والمقاومة، وتملك قوة اللغة الشريفة المقدسة وهي لغة القرآن الكريم وما تحمله من فكر حضاري وقيم إيمانية إنسانية ترسخ وحدة هذه الأمة وتملك كنوز التاريخ المجيد الذي يعبئ أبناءها، ويذكي فيهم روحاً لعزة وشرف المقاومة والجهاد، والبناء والإعمار، وتملك الوطن المتكامل بموارده الاقتصادية وثرواته البترولية والمعدنية وموقعه الاستراتيجي

العظيم بين القارات،فإذا ملكت هذه الأمة القوة العلمية والصناعية والآلة العسكرية، ورسخت وحدتها السياسية والاقتصادية والثقافية، شكلت القوة العالمية التي تحرم الدول الاستعمارية من هيمنتها واستباحتها بلاد المسلمين واستلابها خيرات بلادهم.

القرآن الكريم ينبه لهذه التحديات:

وقد نبه القرآن الكريم للتحديات السياسية والثقافية في قوله تعالى: ((وَمَنْ أظلمُ ممنْ مَنَعَ مَسَاجدَ اللهِ أنْ يُذكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وسَعَى فِي خرَابهَا أولئِكَ مَا كَانَ لهُمْ أنْ يَدْخُلوهَا إلا خائِفِينَ لهُمْ في الدُّنيَا خِزيٌ وَلهمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ)) (البقرة آية 114).

فنبه القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة إلى اعتداء القوى الظالمة المستبدة على مساجد الله وحجب رسالتها، وهدايتها، حتى تحرم الأمة من النور الذي يبدد الظلام ومن الحق الذي يزهق الباطل، ليبقى أهل الباطل في حصون باطلهم، كما نبهت الآية الكريمة إلى واجب الأمة الإسلامية في تحرير بيوت الله والأرض التي تقام عليها بيوت الله حتى لا يدخلها هؤلاء الظالمون إلا في ظل حماية المسلمين وإذنهم وإعطائهم الأمان للراغبين في الدخول إلى هذه الأرض تحت السيادة الإسلامية. وقد ذكر المفسرون أن المقصود بالمساجد في الآية: المسجد الذي عطل عن رسالته في بلاد الشام وهو المسجد الأقصى في فلسطين والقدس الشريف، والمسجد الحرام في مكة المكرمة والجزيرة العربية.

وقد نبهت هذه الآية الكريمة إلى وحدة بلاد الجزيرة العربية وبلاد الشام الشاملة لفلسطين والأردن وسورية ولبنان ممتدة إلى مصر والعراق باعتبارها أرض الدعوة والمساجد الأولى وحصن الإسلام وقلعته الأولى، فهي وحدة سياسية ثقافية حضارية روحها الرسالة الإسلامية.

النبي الكريم ينبه أيضاً لهذه التحديات:

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الوحدة السياسية الثقافية الحضارية بقوله: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى "حديث صحيح".

كما ربطت معجزة الإسراء والمعراج إلى الربط بين مكة المكرمة والقدس الشريف باختيار الله أرض فلسطين والقدس الشريف من بين بقاع الأرض، مسرى لنبيه صلى الله عليه وسلم ، كما اختارها قبلة أولى يصلي إليها المسلمون وهم في مكة المكرمة لمدة ثمانية عشر شهراً.

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه (لا يجتمع في جزيرة العرب دينان) ما فرضه الله على المسلمين من تطهير جزيرتهم من أي وجود أو نفوذ غير إسلامي لتبقى هذه الجزيرة قلعة حصينة للدعوة الإسلامية.

كما وجه النبي أمته لتحرير أرض فلسطين وبلاد الشام بإنفاذه كتائب المجاهدين لغزوة مؤتة التي تمثل أول مواجهة عسكرية في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لتحرير بلاد الشام ومنها أرض فلسطين والقدس الشريف. كما نبه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم لهذا الهدف بقيادته الشريفة للمسلمين في غزوة تبوك لمواجهة جيوش الرومان ، ولإخضاع المحميات العربية الموالية للروم وتحريرها وتحويل ولائها للدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وبعقده صلى الله عليه وسلم اللواء لأسامة بن زيد قبيل وفاته حتى تطأ خيله أرض (الداروم) من أرض فلسطين.

كل هذه الأحداث تدل على حرص النبي صلى الله عليه وسلم على وحدة بلاد الجزيرة العربية وبلاد الشام وتحريرها ممتدةً إلى مصر والعراق، لتكون قاعدة الإسلام الحضارية والثقافية محررة من كل سيطرة أجنبية.

هذا والدارس للتاريخ الإسلامي يجد كيف كانت المساجد الثلاثة فيمكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف، في ظل الدولة الإسلاميةالواحدة، والحرية السياسية التي ينعم بها المسلمون، شرايين حياة فيجسم الأمة الإسلامية تجري منها دماء العافية والقوة العلمية والثقافيةوالاقتصادية ،ممثلة بمدارس العلم وحركة العلماء والتجار ورجال السياسةوتنقلاتهم بين هذه المساجد الثلاثة دون قيود أمنية أو سياسية أو اقتصادية ،لترسّخ التعاون، وتزكي التفاعل بين أبناء الأمة الواحدة حتى إذا غابتشمس الخلافة الإسلامية فرض المستعمر التقسيم السياسي أو التبعيةالاقتصادية والسياسية، وما نتج عنها من تخلف وضعف لا يزال معالأيام ينمو ويشتد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ويحمل أبناء هذه الأمة مسؤوليات عظيمة في مواجهة تحديات القطيعةوالانقسام والتخلف.

التحديات في نظر ساسة الغرب:

لعل من أكثر النصوص توضيحاً للتحديات الثقافية والسياسية التيتواجهها أمتنا العربية والإسلامية ما ذكره (باول شمتز) في كتابه (الإسلامقوة الغد العالمية)، الذي استهدف مؤلفه تبصير الغرب بعناصر القوة فيالإسلام ليأخذ حذره، ويعد خطته لمواجهتها ، ولتتحول عناصر القوة هذه إلى تحديات للمستعمر ليرسم خطته لتفتيت هذه العناصر وحرمان الأمةالعربية والإسلامية منها، وإبقاءها تحت قيود التخلف والانقسام والتبعية.

يقرر (باول شمتز) أن عناصر القوة التي يملكها المسلمون أربعة(وهي تشكل أربعة تحديات للوجود الاستعماري تتطلب مواجهات لتفتيتهاوهدرها):

التحدي الأول: الموقع الاستراتيجي الذي يحتله المسلمون في العالم: وهذا يقتضي إقامة جسم غريب في هذه المنطقة يحرمها من ميزات هذا الموقع، ويحولها إلى الغرب. وكان هذا الجسم هو إقامة الكيان الصهيوني في فلسطين.

التحدي الثاني: النمو البشري لدى المسلمين: وهو نمو يهدد في المستقبل تفوق الغرب، وهذا ما عبر عنه (شمتز) بقوله: (تشير ظاهرة نمو السكان في أقطار الشرق الإسلامي إلى احتمال وقوع هزة في ميزان القوى بين الشرق والغرب، فقد دلت الدراسات على أن لدى سكان هذه المنطقة خصوبة بشرية تفوق نسبتها ما لدى الشعوب الأوروبية).

وينظر الغرب إلى تزايد عنصر الشباب في المجتمع العربي الإسلامي بعين الحذر، ويرسم خططه الماكرة لهدر هذه القوة بالطرق التالية: -

أ - فصل التعليم الثانوي والجامعي عن حاجات المجتمع العلمية والزراعية والصناعية والعمرانية والجهادية العسكرية، وتخريج شباب الأمة بالشهادة المتوسطة والجامعية التي لا يجد بعدها الشاب عملاً منتجاً!

ب - فتح أبواب الهجرة أمام الشباب للانخلاع من الوطن.

ج - تشجيع المخدرات والمساعدة على تهريبها ونشرها بين الشباب.

د - تشجيع الفكر المنحرف الذي يجتث ولاء الشاب لدينه ولأمته ووطنه.

هـ - تشجيع الإعلام المنحرف الذي يقتل في الشباب روح المقاومة والانتماء والجهاد ويشيع بينه اللهو والفاحشة، ويصرفه عن حسن المقاومة والثأر من العدو الذي اغتصب أرضه وشرد شعبه، وقتل أبناءه.

و - قتل روح الطموح والإبداع والعمل عند الشباب الذي لا يجد بعد كفاحه الطويل في ميدان التعليم الجامعي والمتوسط راتباً يهيئ له السكن والعيش الكريم.

ز ـ تشجيع تحديد النسل، وحماية الجمعيات الداعية له وإمدادها بالمال والخبرات.

التحدي الثالث: (الثروات والمواد الخام في بلاد المسلمين)

وهي ثروات كبيرة يستطيع بها المسلمون بناء قوة صناعية تضارع أرقى الصناعات العالمية إن لم تفقها، وسوف تزداد هذه الثروات في وقت تقلفيه ثروات البلاد الأخرى.

وقد واجه الغرب هذا العنصر من عناصر القوة وحوله إلى عنصر ضعف وإفساد ،بإقامة كيانات ضعيفة في بلاد البترول يرتبط حكامها به سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، وإحكام ربط أرض العرب الغنية بآبار البترول بمعاهدات عسكرية دفاعية حولت هذه البلاد إلى قواعد استعمارية أمريكية وغربية ، واغتصبت بترول العرب والمسلمين عن طريق هؤلاء الحكام، وحرمت الأمة من أعظم مصادر قوتها المادية والصناعية،ولم يكتف بذلك بل حول هذه الكيانات إلى محميات ومراكز عدوان على العراق، القطر العربي الذي مضى في طريق بناء قوته العسكرية والعلمية والصناعية ، من أجل هدر قوته البترولية.. ثم ضرب قوته العسكرية والعلمية حماية لأمن إسرائيل ووجودها واحتلاله الأرض فلسطين أرض الإسراء والمعراج ، وما تحمله من تحديات تهدد الوجود العربي والإسلامي أرضاً وحضارة ومقدسات.

التحدي الرابع: الإسلام

الإسلام هو أهم عناصر القوة في المجتمع الإسلامي وأخطرها ويصف (شولتز)الإسلام: بأنه ذلك الدين الذي له قوة سحرية على تجميع الأجناس البشرية المختلفة تحت راية الوحدة ، بعد إزالة الشعور بالتفرقة العنصرية من نفوسهم، وله من الطاقة الروحية ما يدفع المؤمن به إلى

الدفاع عن أرضه وثرواته بكل ما يملك مسترخصاً في سبيل ذلك كل شيء حتى روحه.

أي قوة وجدانية بعثت هذه الإرادة في العالم الإسلامي، قوة الوحدة الفكرية للإسلام، ووجود الإحساس الحي للدين الإسلامي فهو ينتصر في كل مكان ينزل فيه الميدان مع الأيديولوجيات الأخرى. إن اتجاه المسلمين نحو مكة موطن الإسلام الأول عامل من أهم العوامل في تقوية وحدة الاتجاه الداخلي بين المسلمين، وأسلوب يضفي على جميع نظم الحياة في المجتمع الإسلامي طابع التماسك وصفته[1].

وقد سلك المستعمر بعد احتلاله لبلاد المسلمين وسقوط دولة الخلافة العثمانية طرقاً متعددة لمواجهة قوة الإسلام ورابطتها وآثارها منها:-

أ - تمزيق وحدة العالم الإسلامي السياسية بإقامة كيانات على أسس إقليمية وعشائرية وطائفية.

ب - تكريس هذا التمزيق الإقليمي بدعمه بتمزيق ثقافي، وذلك بتشجيع الدعوة إلى الفرعونية في مصر، والأشورية في العراق، والفينيقية في سورية، وإحياء النزعات الإقليمية والطائفية، والمذاهب الباطنية، فالمستشرق الفرنسي (ماسينيون) هو الذي قام بإعادة كتابة العقائد النصيرية على أسس فلسفية ليعطيها قوةً ويشجع بقاءها في سورية بعد أن رأى ذوبان النصيريين في الشيعة، وكذلك الدعوات إلى فصل العروبة والقومية العربية عن الإسلام فنشأت في أحضان الجامعات الأمريكية في بيروت والقاهرة بعد أن غذاها المستشرقون وجعلوا المثال الغربي للشباب العربي قدوة يحتذونها في التخلص من التخلف السياسي والعلمي والاجتماعي، دون أن يفرقوا بين طبيعة المجتمعات والأديان والحضارات.

[1] الإسلام قوة الغد العالمية، لباول شمتز، ترجمة الدكتور محمد شامة، مكتبة وهبة، القاهرة (1976).

ولعل تقرير اللجنة الدولية التي تألفت بأمر (السير هنري كاسبلباترمان) أحد رؤساء الوزارات البريطانية السابقين سنة 1907، يلقي ضوءاً على مخططات المستعمر لمصادرة مراكز القوة وأسبابها التي تهدد مصالح المستعمر في بلاد المسلمين، والتي تشكل تحديات مزدوجة فهي بالنسبة إلى المستعمر تعني أخطاراً لا بد من إزالتها ودفعها، وبالنسبة إلى الأمة العربية تعني القوة التي بها يدفعون عن أنفسهم خطر الهلاك والإبادة وتعني
مواجهة خطط المستعمر التي رسمها لحرمانهم من القوة وأسبابها.

يقول التقرير إن (الخطر الأكبر على الاستعمار يكمن في منطقة (الشرق الأوسط) فهذه المنطقة مهد الحضارات والديانات، ويسكنها شعب تتوافر له من وحدة تاريخه ولغته ومثله وآماله، وثرواته الطبيعية ونزعة أهله إلى التحرر ما يجعله مؤهلاً للنهوض من جديد، وانتزاع قيادة الحضارة البشرية...

أما كيفية مواجهة الخطر الذي يهدد المصالح الاستعمارية فكان من بين عناصرها فصل الجزء الأفريقي من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوي بإقامة حاجز بشري قوي وغريب يملأ الجسر البري الواصل بين القارتين، بحيث يشكل في هذه المنطقة وقريباً من برزخ السويس قوة صديقة للاستعمار الأوروبي ومعادية لأهل البلاد.

وقد حرص الغرب على تحقيق هذا الاقتراح بكل قوة حيث غرس قوة صديقة للاستعمار الأوروبي ومعادية لأهل البلاد وهي (إسرائيل)، وقد أقام كذلك كيانات مفككة يحرم عليها امتلاك أية قوة تهدد أمن إسرائيل ووجودها، كما يحرم عليها تهديد أمن إسرائيل بالسماح للمجاهدين بالانطلاق من أرضها إلى فلسطين المحتلة.

ورسم لهذه الكيانات سياسة تربوية وإعلامية وقانونية تقوم على إبعاد الإسلام عن الحياة، عقيدة وشريعة ونظام حياة، وتعوّد الحياة الغربية في

أسلوب طعامها ولباسها وسلوكها ، حتى يحرمها من قوة الأصالة والتميز الحضاري، وي سهل عمليات التطبيع والذوبان الحضاري في قبول الجسم الغريب القاتل لوحدتها وقوتها ووجوها والمكرس لأسباب ضعفها وهلاكها، وبلغ الأمر ببعض هذه الكيانات أن تحرض صحفها ورجالحكمها الولايات المتحدة الأمريكية على الاعتداء على العراق، بعد أنحركت جيوشها لتشارك القوات الصليبية الغازية في عدوانها على العراقمن منطقة حفر الباطن!

لقد كانت جريمة العراق في نظرهم أن يمتلك القوة العلمية والتكنولوجية والعسكرية التي تهيئ له الدفاع عن أرضه والتحرر من الهيمنة الاستعمارية.. فرسموا الخطط وسخروا العملاء وقادوا الجيوش لتحتل أمريكا وحلفاؤها الجزيرة العربية ومنابع النفط من جديد ، وليعلنوا النظام العالمي الجديد الذي تقود فيه الولايات المتحدة العالم لحماية مصالحها، والاعتراف بالشرعية الدولية التي تحرم على أهل فلسطين بلدهم، وتفتح أبوابه للغرباء اليهود الذين يهاجرون إليها من أنحاء الأرض تبني لهم المستوطنات وتقدم إليهم السلاح والمال والجنود.

وفي ظل الشرعية الدولية تستباح أموالنا وثرواتنا ومقدساتنا وشعوبنا ،وفي ظل الشرعية الدولية تـُحمى الحكومات المستبدة، ويُحمى الحكام الوالغون في دماء شعوبهم المعطلون للديمقراطية وللدستور والمصادرون للحريات، ما دام هؤلاء الحكام يقومون بوظيفتهم في حماية المصالح الأمريكية والغربية وحماية أمن إسرائيل، وحرب الإسلام عقيدة وخلقاً وتربية وجهادا.

ولم تقتصر الولايات المتحدة الأمريكية على دعم الأنظمة الموالية لها

الخانقة للحريات ، المحاربة للإسلام بل م د ت يدها إلى الحركاتوالتنظيمات الحزبية المعادية للإسلام تمدها بالمال والدعم ولو كانت لا تتفقمع هذه الحركات في أهدفها الفكرية..

يقول (إيدن) رئيس الوزراء البريطاني الأسبق في مذكراته (إن أمريكا فيالخمسينيات راحت تنفق أموالها على نطاق مسرف لإعانة الشيوعية فيالشرق الأوسط، وكان غرض أمريكا من نشاطها السيا سي والثقافيوالعلمي في هذه المنطقة هومحاربة المبادئ والعقائد الروحية والدينية التييؤمن بها سكان المنطقة)[1]. أما الزعيم الشيوعي (كاسترو) فإنه ينصح(إسرائيل) ألا تترك الحركة الفدائية تتخذ طابعاًإسلامياًدينياً لأن ذلك يجعل منها شعلة من نار الحماس الديني،مما يجعل من المستحيل علىإسرائيل أن تصون كيانها معه لأن الفداء إذا تملكته عقيدة دينية ، وبخاصةفي المجتمعات الإ س لامية تلاشت أمامه كل العقا ئد الأخرى بما فيهاالماركسية[2].

---

(1) مذكرات إيدن، ص 343، الطبعة الإنجليزية،نقلاً عن (المسلمون والبديل الحضاري ،للدكتور حيدر الغدير)، طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي ص 36- 37، وانظر مانقله صاحب هذا الكتاب عن باول شمتز ص 34- 36.

(2) المسلمون والبديل الحضاري، د. حيدر عبدالكريم الغدير ص 37، طبعة المعهد العالميللفكر الإسلامي.